لينة كريدية
خان زاده
رواية

لينة كريدية

خان زاده

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

وأخيرًا، أعود إلى المنزل حيث ينتظرني كلبي العجوز وزجاجة من النبيذ. اثنان يؤنسان وحدتي التي اعتدتها مع مرور الأيّام. الطقوس المتكرّرة يوميًا للسيناريو المعتاد. أتكوّر في مقعدي الذي تأقلم مع منحنياتي، وأطمئنّ لوجود علبة الدخّان والولاّعة والمنفضة، بالإضافة إلى احتياطيّ لا بأس به من علب الدخّان في المكان المخصص للكروزات. والأهمّ؛ الكأس والزجاجة وجهاز الريموت كونترول للتلفزيون، حيث من الممكن أن أشاهد أحيانًا برنامجًا أو فيلمًا، وأشرد وأتوه، وتراودني أحلام اليقظة أحيانًا أخرى. أتذمّر وأسعى إلى الخروج من دائرة وحدتي، ولكنّني بعد سهرة واحدة أو سفر، طال أم قَصُر، أعود بلهفة عاشق إلى مكاني الحميم، لا أبارحه إلاّ إلى سريري، بعد انتهاء الليل والنبيذ والأحلام. يطربني صوت فتح فلّينة الزجاجة، وبدهشة وفرحة طفل صغير، أسكب كأسي الأولى وأرتشف شيئًا من النبيذ. وككلّ مساء أكتشف أنّ مذاقه ليس ممتازًا، فهو ليس بالنبيذ الفاخر، بل نوع أقلّ من العادي يناسب ميزانيّة الاستهلاك الشهري المنتظم. وسرعان ما أغيّر رأيي لاحقًا، خاصةً عند الكأس الأخيرة، وأبدأ في التغزّل بلونه، ثم أشعر بالحسرة لأنّه كان نبيذًا ممتازًا. أحمل جهاز التحكّم، وأتنقّل ما بين القنوات، وأترحّم على أيّام تلفزيون لبنان، حين كان خيارنا الوحيد، ويتملّكني الحنين إليه. لكنّه ككلّ شيء حولي يخذلني. أعود لأفتّش عن فيلم عربي قديم وأُوفّق. اليوم لا مزاج لي للقراءة، سأستمتع بالنبيذ وما تبقّى من فضلات سهرة الأمس مع روعة وجيهان؛ من بزورات غير طازجة نسيتها البارحة على الطاولة، وأجبان، وبضع حبّات فراولة حمراء مغربية. أعرف أنّ شهيّتي لن تداعبني قبل كأسين على الأقلّ، لكنّ رغبتي الطاغية في أن أبرك في مقعدي جعلتني أحضّر ما أريد أمامي الآن. لا شيء طازجٌ من البذورات. حتى أحاديثنا أنا وجيهان وروعة تُعاد وتُكرّر. لم نعد نحن الثلاث كما كنّا، أصبحنا أقلّ نضارة. روعة لم تتغيّر أبدًا بمحبّتها وطيبتها المطلقة. تنبئنا بأنّه سيأتي علينا اليوم الذي لن نعبأ فيه بشؤون حياتنا اليوميّة، ولماذا يكون على جيهان أن تغضب كلّ يوم لرؤية دكتاتوريّات العالم العربي توغل في القمع، بينما البلد الديموقراطي الوحيد في المنطقة ينئ تحت وطأة الحروب الأهليّة والتمزّق الداخلي، متحوّلاً إلى حلبةٍ لصراع الآخرين على أرضه. جيهان المهمومة أبدًا لم يعد أمامها سوى أن تترحّم على أيّام غيفارا حين ترى الدولار الأميركي هو العملة المتداولة الآن في كوبا! لم نتصوّر يومًا أنّ الأمور ستؤول إلى ما هي عليه الآن. نعاود أحاديثنا ونرتاح لمقاعدنا التي نتململ منها ونثور عليها، ونرغب دومًا في تغييرها، ولكنّنا

نستكين لها في نهاية المطاف، والعود أحمد. أرتشف رشفة من نبيذي وأبتسم إذ أفكّر، من كان يظنّ، ولو للحظة واحدة، أنّ جيهان مثلاً ستعود إلى نقطة الصفر؟! لم تكتف بعبد المطلب وأمّ كلثوم وناظم الغزالي، وكلّ الأثاث القديم والتقاليد، بل تراجعت عن الكثير ممّا حاربنا لأجله في الجامعة حين كنّا دون العشرين. عادت رويدًا رويدًا إلى التعصّب والمذهبيّة. كان تراجعها الأوّل وقت العدوان الثلاثي ومن بعد النكسة، ثم كان تراجعها الثاني حين أحبّت سميرًا. خُيّل للجميع أنّهما أجمل عاشقين؛ مناضلان على رأس كلّ المظاهرات داخل الجامعة لفتح كلّيّات جديدة، وخارجها ضدّ غلاء المعيشة. لم تخدع الآخرين أو نفسها، وأقامت معه علاقة جنسيّة كاملة. هشّمت وهم غشاء البكارة في زمن كان هذا تحدّيًا سافرًا، حتى لو كان دون علم أهلها، وبتواطؤ ضمني من الأصدقاء. اختارت الطريق الصعب بقناعة حقيقيّة. بدأ سمير كفاحه، فسافر إلى بلد عربي ليعمل هناك، وظلّت رسائله تمطرها أسبوعيًا، ثم أخذت بالتراجع تدريجيًا، بالطبع حالت كرامة جيهان دون الإلحاح عليه بموضوع الزواج، واعتبرت الأمر مفروغًا منه، فالزواج آتٍ لا محالة، فور استطاعته التقدّم لها. إلى أن عاد يومًا مع زوجته، ابنة الوزير السابق. التراجع الكبير كان خلال الحروب الأهليّة وسقوط بيروت، بعدها أصبحت تراجعات جيهان أقلّ حدّةً وحزنًا، ثم استكانت إلى قوقعتها وتوحّدها. رحل والداها العجوزان تباعًا، وتركا لها إيجارات لا بأس بها، وكرم إخوتها المغتربين الذين لا يبخلون عليها بالحبّ والمال.

تشبه جيهان، في فصل الخريف، حديقتها ذات شجرة الكاميليا العالية ونافورة المياه المهجورة؛ نادرًا ما أصبحت تدعونا لتدخين النارجيلة في حديقتها، وتفضّل الجلوس داخل المنزل لتستطيع أن تحتسي الكحول، بعيدًا عن أعين المتطفّلين الثرثارين. هذه العادة التي تتسلّل إلى حياتها جعلت شكلها يتكوّر كالحامل، معلنًا عن فقدها الحماسة بإقامة علاقة، رغم نصيحتها الدائمة لنا «لا يُنسى الرجل إلاّ برجل آخر». ظلّت تحتسي مسلسلات زمن الباشوات والمماليك وحارات الزمن البائد. ساعدها المكان بصور أسلافها التي تزيّن جدران المنزل الشاسع ذي السقوف العالية الذي ورثه أبوها عن جدّها، ومرآة جدّتها، والقنديلين التركيّين، ومغسلة غرفة الطعام، حتى سريرها السبيدران، مع الدرج والناموسيّة، يجعلها تعيش في دور، هي نفسها لا تريد الخروج منه.

لم نزل أنا وروعة مؤمنتين بقوّة جيهان، لم نفقد يومًا رهاننا على عودتها للحياة ثانية، ولا أدري هل نكذب على أنفسنا ونحن نراها تغرق في

الكحول والكآبة، في عمر يصعب على المرأة فيه التراجع عن عاداتها. يساورني أحيانًا الشك بأنّ الإسراف في تخيّل قوّة الآخر يظلمه كما نظلم جيهان، من حقّها أن تبحر في أحزانها وتعاقر الخمر، وتضعف وحيدة، وتختار عالمًا من الكتب وأفلام عبد الفتّاح القصري ومحمّد فوزي وإسماعيل يس. عندما تناقشت وروعة في هذا الموضوع علا شجارنا. لم أفهم لماذا يكون على جيهان أن تعاود العيش في يوميّات الحياة العاديّة المحبطة؟ ما الذي ستستعيده حين تعرف عدد القتلى اليوميّين في الانفجارات؟ وتتابع أخبار اقتتال الإخوة الفلسطينيّين فيما بينهم! أو تطالع إنجازات زعمائنا العرب المنتخبين ديموقراطيًا على الأقّل بـ ٩٨ بالمئة من الأصوات؟! لم أفهم لماذا على جيهان أن تعيش موت أحلامها القديمة مرارًا وتكرارًا، وكلّ يوم، لتتعوّد على بشاعة الواقع. لم تفهم روعة أنّ علينا، في بعض الأحيان، التنحّي جانبًا لحين مرور العاصفة، كما فعل قدماء المصريّين حين تكون الريح أقوى منهم. ولم تفهم أنّ الأوهام والأحلام أجمل بكثير من الحقيقة والواقع. وربّما يكون محظوظًا ذلك الإنسان الذي يعيش حياته كما يرتئي، مستمتعًا بالاستغراق في حزنه، حتى الحزن بحاجة إلى وقت كي ينضج.

نادرة هي الحالات التي لا أعجز فيها عن اتّخاذ موقف من موضوع معيّن، أو أن أفقد القدرة على أن أميّز بين الصواب والخطأ. هل روعة على صواب بأنّ المنطق أن يعيش الإنسان يومه؟ أم أنا الضائعة في متاهات الحياة؟ وما هي نجاحاتي في حياتي الشخصيّة لأعمّم تجربتي على جيهان، وأرغمها على الاستماع إليّ!

أرتشف قليلاً من النبيذ، وأتّصل بها لأطمئنّ عليها، مع أنّني أستطيع أن أخمّن أنّها الآن تتربّع على تلك الكنبة الضخمة التي ترتاح عليها، وحولها قططها الكسولة، ومسلسلاتها التلفزيونيّة البطيئة المتدافعة بمئات الحلقات من جهاز الدي. ڤي. دي. تحكي لي شيئًا من المسلسل التركي الذي تشاهده الآن، وتسألني، بعتب كبير، كيف أمكنني أن أترك بيروت ـــ بيروتنا ـــ لأعيش في قرية سوق الغرب. صحيح أنّني أطلّ على بيروت من فوق الجبل، وأرى البحر والمطار، لكنّ العيش في بيروت شيء آخر، رغم زحامها وضجيجها وتلوّثها. أنصت إليها دون أن أردّ. تدرك بذكائها أنّني أودّ تغيير الموضوع، فتنهي الحديث بأنّها فقط اشتاقت إليّ وتفتقد جيرتي، وربّما ستأتي غدًا مساء. تزداد جيهان انغلاقًا مع مرور الأيّام. تؤنس وحدتها قططها وهوسها بالنظافة، وسخرية مريرة من كلّ ما حولها. بيروتيّة قديمة مثلي تعرف عن المدينة المتوسّطيّة ما لا يستطيع القادمون إليها أن

يكتشفوه، ولو سكنوا بيروت عشرين عامًا. تضحك من طقوسنا السرّيّة، وفكرة أنّ بيروت مدينة مفتوحة كسائر المدن، لأنّنا نعرف أنّ أهلها هم الأكثر انغلاقًا على أنفسهم. حين فكّرتْ في الزواج يومًا تقصّت من والديها كلّ المعلومات عن لقب كلّ عائلة لمعرفة أصلها، ومن ثم المنطقة ورقم السجلّ لتعرف أقدميّتها ومستواها الاجتماعي، وهذا حال الكثير من البيارتة، لا يحبّون التزوّج إلاّ من محيطهم، ويصيبهم الخروج من هذه الحلقة بغصّة. أهل هذه المدينة غير أهل بقيّة المدن، لا يرحّبون بالقادمين الجدد، بل يعتبرونهم عبئًا عليها؛ وكم تفرح جيهان عند حلول الأعياد حين يعود هؤلاء إلى قراهم، فتشعر أنّ بيروت نظيفة وحقيقيّة وأنّها ـــــ لنا ـــــ لأهلها الحقيقيّين.

حاولت جيهان أن تبرّر هذا النفور من غير البيارتة الأصليّين بمسحة تنظيريّة قديمة، عائدة إلى نظريّة ترييف المدن؛ النازحون إلى مدينتنا لا يحبّونها غالبًا، ولا يبغون الاستفادة من المدنيّة، على العكس، هم يريدون تحويل هذه العاصمة إلى قرية أخرى. جيهان لا تزال متمسّكة بكلّ العادات القديمة من «أربعة أيّوب وتحضير الكفن والصرما التركي، لزوم الموت والدفن، والطبخ القديم بكلّ أشكاله، واللهجة الغميقة التي لم تعد تداريها ـــــ كما كانت تفعل في أيّام الشباب. بيروتيّة حقّة، ككلّ أسلافها الذين غادروا منزلهم الأوّل في السوق قرب الجامع العمري الكبير، هربًا من الزحام، لكنّها حملت معها الزحام كماضٍ وكفكرة مجرّدة، وأسمت حياتها العزلة الصاخبة. ازدحمت بالتفاصيل، بدءًا من انهماكها بجرائدها اليوميّة ومسلسلاتها العربيّة والمكسيكيّة والتركيّة، ووسواس النظافة والطبخ، انتهاءً بتركيب عطورها. حتى الطريقة التي تتعطّر بها أصبحت نظريّاتٍ وطقوسًا. ابتدأت معها القصّة حين لم تعجبها أيّ من الروائح الفرنسيّة الفاخرة، فسّرت ذلك بأنّ الأوروبيّين لا يدركون سرّ حرارة شمسنا الشرقيّة، ولا طبيعة تربتنا وبشرتنا القمحيّة الحارّة. أزهارهم الهزيلة البيضاء الهزيلة لا تستطيع التماشي مع كلّ مكوّناتنا. ما إن ترى الزجاجة أمامها حتى تبدأ بتوصيف العطر كذوّاقة النبيذ العالميّين؛ فهذا العطر قصير، وذاك حلو وطفولي كالعلكة، أو خفيف وفاقع كسلطة الفاكهة، بينما تلك الرائحة ناشفة ومتحذلقة. تحوّل الأمر إلى هوس أخذها إلى التوجّه شرقًا، حيث التوابل الحرّيفة والأخشاب العتيقة، والبخور المستخرج من صمغ الأشجار وكلّ أسرار الهند، وصولاً إلى كمبوديا وبورما، حيث تشمخ أشجار العود العجوزة في غفلة من الزمن؛ فصناعة دهن العود الفاخر بحاجة لاستخراج العطر من خشبه، ومن ثم دفنه سنوات طويلة ليختمر، بينما الياسمين مثلاً

يجب أن يُقطف في ساعات الفجر الأولى ويستلقي على الدهن، لاستخراج عطره، نظرًا لحساسيته المفرطة. احتقرت جيهان العطر البخّاخ، ورأته أشبه بالمبيدات الحشريّة. العطر الحقّ هو الزيوت التي تتغلغل في مسامنا؛ ولا بدّ أن تبدأ طقوس العطر المقدّسة بحمّام ساخن طويل، ليبدأ بعدها الوقوف فوق البخور ووضع الزيوت على أمكنة ومنحنيات أخرى، فتتوغّل الروائح في الشعر، وتمكث لساعات طويلة على كامل البدن. بعدها أخذت جيهان تحضّر زيوت العطر الأساسيّة لتركّب منها ما يلائم الطقس، ويلائم جسدها ومزاجها على الأخصّ. تلتجئ في الشتاء إلى القوي منها والداكن، كدهن العود والعنبر، وتخفّفه بالمسك الأبيض. أمّا في الصيف فتفرض الروائح الأكثر خفّة والأقلّ جدّيّة نفسها: كالصندل، وأنواع المسك المتعدّدة كمسك العروس والياباني، وتبتعد عن ورد الطائف لأنّه مركّز، طاغٍ ووقح، كما تدّعي. أمّا في المناسبات، فهي تعتمد على دهن العود الفاخر فقط، من دون أيّ خليط، لأنّه الملك بدون منازع، وهو الشيء الوحيد الذي تطلبه من إخوتها في المملكة السعوديّة، من غير أيّ حرج، فيرسلون لها التولات بأعداد كبيرة، لأنّهم يدركون أنّها تسعد به وتحتاجه. أصبحت جيهان أكثر حبًّا للمعرفة عن العطور لتطوير طقوسها المقدّسة؛ أصبحت تسأل الخليجيّات عن أسرارهنّ، وكيفيّة صناعة المعمول للتبخير، فاكتشفت الشبّة والمسك الأبيض المطحون لتحت الإبط وبعض المنحنيات. فالشبّة تمنع التعرّق، وتمنع اسوداد لون الجلد، بينما غبار المسك يمنح الرائحة العطرة طويلاً، ويزيد البشرة بياضًا. تهدينا جيهان المعلومات عن أحدث اكتشافاتها، بعد أن تكون قامت بالتجارب على نفسها، وتنفحنا ببعض الخلطات العطريّة المميّزة. تتكلّم جيهان عن شغفها بالطبخ والعطور بحماسة، بينما تتغيّر نبرة صوتها إذا تطرّق الحديث إلى أيّ موضوع آخر. طريقتها التهكّميّة في الوصف تكذّبها نبرتها سريعًا. لذلك نركّز على ما تحبّ التكلّم عنه، ونستفيد من هداياها. لا تنظير أو نصائح أو فلسفة مع جيهان، فقط نقبلها كما هي. ربّنا أعطنا خبزنا كفاف يومنا. دفعنا أثمان كلّ أحلامنا نقدًا على الطاولة، ماضينا اليساري والناصري، وكلّ ما ناضلنا من أجله. نفكّر اليوم بما سنشتري من خضار ولحوم، وكيف سنعدّها للطبخ مع مراعاة نسب الكوليستيرول والسكّر والضغط. متى سنروي أصص الزرع، وندفع لصاحب مولّد الكهرباء، الذي طلب زيادة شهريّة لانقطاع الكهرباء المستمرّ؟ نخطّط لتغيير فرامل السيّارة وزيتها، وربّما نفكّر بحضور سينما أو مسرح، أو شراء كتب. أنا المترفة قليلاً سأجلس متسمّرة لبضع ساعات أمام الكمبيوتر ـــ إذا حالفني الحظّ، ولم تخذلني شبكة الاتّصالات

بالدخول إلى الأنترنت، نظرًا للأحوال الجوّية المضطربة، والخطوط الأكثر اضطرابًا في هذه القرية ـــــ سأبتهج إذا لم تستهلكني زحمة السير الخانقة ومرور أحد مواكب الزعماء الحاكمين لتخنق الوقت وأعصابي ببطء. كما سأحمد الله إذا لم يكن هناك حادث سير مروّع ليكون الوصول في الموعد هو حديث الساعة. جيهان وروعة وأنا، اللواتي حلمنا بأنّنا يومًا ما سنعبر حدود العالم العربي من الخليج إلى المحيط من دون حدود أو تأشيرات، بسيارة صغيرة نتناوب على قيادتها، وبحوزتنا عملة عربية موحّدة، نحن أنفسنا شاهدنا احتراق أطفال غزّة بالفوسفور الأبيض قبل أن نعاود نومنا الكهفي الطويل.

رشفة أخرى من النبيذ اللبناني غير المعتّق تجعلني أحسّ بتحسّن مذاقه تدريجيًا. أنظر إلى أضواء بيروت التي تتلألأ عن بعد، وثمّة طائرة تتهادى نحو مدرج المطار، وقمر منير. كم من الليالي جزّتنا جيهان ونحن صغار لنرى وجه عبد الناصر في القمر، كما أكّدت لها أمّها وأمّهاتنا. كيف، أقنعتنا جيهان بأنّنا شاهدناه. كبرنا وأقنعتنا بما بعد القمر وصدّقناها؟ بيروت الساحرة من فوق الجبل تتوهّج، كيف قويت على مفارقتها يومًا؟ كيف أنظر الآن إليها من بعيد؟!

سأفكّر بأيّ شيء إلاّ روعة، وأنا أرشف رشفة طويلة من النبيذ.

تفاجئني نشرة الأخبار بظهور أحد السياسيين، سرعان ما أقلب القناة، بعد القرار الذي اتّخذته مع جيهان بعدم السماح لأيّ من هؤلاء الكذّابين بالدخول إلى منازلنا. لن يحصلوا على هذا المجد بتاتًا. اتّخذنا هذا القرار، مباشرةً بعد ظهور الصخاف، وزير الإعلام العراقي السابق، على التلفزيون في ذلك اليوم المشؤوم، وانهماكنا ليلتها لمعرفة معنى «العلوج»! من نأتمن للدخول إلى منازلنا؟ سؤالي التقليدي بكلّ ما يحمله من شكّ واستعادة لمرارة تجاربي السابقة! لا أتذكّر في هذه اللحظة إلاّ نضال. كم يشبه مدينة لاس فيغاس، تلك المدينة الجحودة الجميلة التي لا تعترف إلاّ بما هو جديد! لا حواري ولا أزقّة ولا دروب. لا أبواب تنغلق على خصوصيّات شوارع منسيّة مملوءة بالذكريات. فقط فنادق ضخمة تختزل مدنًا كالبندقيّة وروما القديمة وباريس. الجديد وحده هو قبلة الأنظار. أمّا القديم فينتظر إنهاء خدمته الإلزاميّة، محتضنًا الأعداد المتزايدة من الزوّار. معظم الرجال هكذا، ونضال على وجه الخصوص: دائمًا ما يمنح القادمة الجديدة دور البطولة، في رغبة اكتشاف لا ترتوي للنساء. مجرّد التفكير في هذا يحفر سنوات الإرهاق من جديد على وجهي، ويخطّ تجاعيد جديدة حول عينيّ. مرارات عميقة، وهبات حارّة تلفح جسدي الذي بدأت عروقه تظهر، معلنةً بداية انتصار الزمن عليه. كنت قد اتّخذت قرارًا كي أشفى من نضال نهائيًا. ألا أشعر نحوه بالغضب أو حتى الكره؟ أيّ شعور يطوي ثناياه ذلك الأسف على الذكريات الجميلة؟ أريد فقط أن أتخلّص من هواجسي، من روائح الأخريات على جسده وجسدي والفراش، وكلّ الأمكنة، حتى ما علق على الصابون. استغرقت سنوات حتى أستطيع أن أقول كفى. هل دليل الخيانة الفعليّة التي لم ولن تفلح أيّ مرأة بإثباته على رجل هو سبب إنهاء العلاقة؟ أو رؤية أخريات في عيني الرجل سبب كافٍ؟ هل من الضروري سماع كلّ الأحاديث عن جلد المرأة المشدود والاستمتاع بمراحل التعليم الأولى لجغرافية الملذّات واصطناع ابتسامات اللامبالاة، ومن ثم الادّعاء بأنّ كلّ شيء على ما يرام؟ والدليل أنّ الكرة الأرضيّة لم تغيّر دورتها المعتادة؟ سبع سنوات حتى أقرّر عدم إضاعة سنوات أخرى، بكلّ ما فيها من مغامرات وأسفار ووله وتيه، بكلّ مفردات الحبّ الثلاث والستّين في كتاب «روضة المحبّين ونزهة العاشقين» لابن قيّم الجوزيّة. لم أكن أتصوّر أن تكون نهاية نضال، في آخر خمسيناته، أن تستهويه الفتيات من دون العشرين. طالما أقنعت نفسي أنّ ثقافته الرفيعة واختياره الواعي، لا سيّما في عمر متقدّم، سيحميانني من الفشل. لكنّني

كنت كفأر في مختبر يفحص قدرته على احتمال الضغوط، عند نجاح كلّ اختبار يصعد إلى درجة أعلى من الضغط.

لم أتوقّع أن أرحل بعيدًا، أن أهرب بعد هذه السنوات. هربت بقدميّ اللتين كان يقول عنهما: أعشق قدميك لأنّهما تأتيان بك إليّ. قدماي حملتاني بعيدًا بعد أن حفظهما في ألبوم صور حاسوبه الشخصي. لا أدري متى اكتسب نضال هذه الهواية. ولع بتصوير أصابع الأقدام، أرجل سمراء، أرجل بيضاء، أرجل سوداء، أظافر مقلّمة ونظيفة، أظافر مهملة، أرجل ممتلئة، كعب قدم متشقّقة، وبالطبع ـــــ ضمن المجموعة ـــــ أظافري الملوّنة بوقاحة. يدير صور أقدام النساء على شاشة الحاسوب في وقته الميّت. كنت صورة من مجموعة مكتظّة تتنافس: أنا التي ظننت يومًا أنّني سأنفرد بنضال في علاقة أحاديّة من الطرفين، لكنّ اليوم أتى، وأتى معه اصطدام حلم يقظتي بالواقع المؤلم. اقتنعت، بعد زمن طويل، أن لا شفاء للرجل النسونجي الذي يعذّب مَنْ حوله. رشفة طويلة من نبيذي المتواضع لأفكّر بألمٍ يشبه العيش في لبنان علاقتي بنضال، ذلك العمر الذي يمضي تحت القذائف وأزيز الرصاص، ثم العيش في الرعب والخوف والترقّب لما ستأتي به الحروب الأهليّة القائمة. ألهذا ظلّ نضال وجعي غير القابل للشفاء؟ ألهذا ظللت، بعد كلّ هذه السنوات التي ضاعت هباء منثورًا، بلا استقرار وبلا منزل وطفل أراه يكبر أمام عينيّ، أمعن النظر في وجهه لأرى كم يشبهني أنفه أو جبينه أو لون عينيه. كم نصحتني روعة وأمّي وصديقة العائلة مريم قبل أن يفوت الأوان. مريم صديقتي تدفعني للحياة والحبّ والتألّق، وتوحي لي كعادتها، من بعيد، بضرورة أن أنجب من أيّ رجل، حتى لو استغنيت عن خدماته لاحقًا. تؤمن بي كي أثق بنفسي، وأخطو، لكنّني توغّلت بعيدًا بطموحاتي وأعمالي وحرّيّتي، واخترت من الرجال من لا أمل فيه بتأسيس عائلة. كانوا يشبهونني تمامًا في ذلك الوقت، أنانيين مثلي، عندما رفضت خلق طفل أعبده، وأتنازل بسببه عن مستقبلي المهني وحرّيّتي، حتى ولو كان جزءًا منّي. لم أفطن أنّه سيأتي اليوم وأشعر بتلك الوحدة القاسية، والتراجع عن موقف اقتنعت به وأعانيه الآن. كان ذلك الشعور يتسلّل إليّ، في البداية خجولاً، عند عودتي مساء وحيدة إلى منزلي حيث تستقبلني نباتاتي الذابلة العطشى، فأنهمك بإزالة ما أرتديه على جسدي وعلى وجهي من أقنعة، وقراءة الكتب التي تنتظرني.أنهمك بوضع موسيقاي المفضّلة، وعشرات التفاصيل الأخرى التي أعرف أنّها تافهة. لكنّ ذلك الشعور سرعان ما يحاصرني عندما أرقد في سريري، ويجافيني النوم. أفكّر في شيخوختي وحيدة. حتى المبرّرات

التي طالما أقنعت بها نفسي لم تعد مقنعة. مسألة الازدواج التي لم أطقها، أن يكون الثدي الذي في فم الرضيع هو ذاته الذي يرتجف لذّة تحت الأصابع التي تداعبه. أن تنجب المرأة من موطن متعتها. هل يمكن للأمومة والشبق الجنسي أن ينبثقا من مكان واحد؟ كيف كان لي أن أعرف، وأنا لم أجرّب؟ وكلّ ما كان لديّ مجرّد أفكار، والفرق بين الاثنين، بدءًا من الأمور الكبرى وانتهاء بأبسط الأشياء المتعلّقه بنظرتي تجاه جسدي. أربكني تراجعي، فبعد أن كنت أنفر من وجود الأطفال، في الطائرة، وفي السوبرماركت، وفي أيّ مكان يتعالى فيه صراخهم، وأسخر من الآباء والأمّهات الذين يظنّون أنفسهم متحدّرين من سلالة عبقريّة جميلة، يخافون على نسلهم الأينشتيني الرائع من الزوال، أصبحت أنظر إلى الأولاد وهم يخرجون من المدرسة فأتمهّل بالسيّارة. وصرت أراقبهم خلال عيد الأمّ يحملون الأزهار ويركضون أمام آبائهم، يسابقونهم بأرجلهم الصغيرة لتقديم الباقة.

كنت أظنّ أنّني لن أحيد عن هذا الشعور مع كلّ هبّة حارّة يلفحني بها جسدي الذي بدأ يفقد رونقه وشبابه، ويكتنز عند الردفين والبطن، مع ارتخاء الزندين والفخذين. أنظر في المرآة فأدرك الفارق بين نهدَي امرأة تشارف الخمسين، وصبيّة في العشرين. ربّما هذا الفارق هو ما دفع نضال إلى مغامراته، ربّما هو ما جعله يرى أيضًا، بعد نهاية المغامرة في كلّ صبيّة، صورة هشّة سطحيّة تدعو إلى الملل، فينساها بعد أسبوعين أو ثلاثة على أقصى تقدير، ولا يردّ على ملاحقاتها وتوسّلاتها، ويلحقها بألبوم نسائه. كنت أعرف أنّ نضال، صاحب الذوق الرفيع والضعف الشديد تجاه التجارب الجنسيّة الجديدة، هو أيضًا الذي يحبّ أن أعامله كندّ، وأناقشه. لم أغيّر يومًا رأيًا أو موقفًا لإرضائه، لطالما أحسست بامتلائي كامرأة، ولم أزيّف نفسي معه. هذا أنا وليقبلني كما أنا.

رغبة الدخول إلى الحمّام توقظني من شرودي، أنهي كأسي وأهرول إلى المرآة، فأكره إضاءتها القويّة وأتبيّن تجاعيدَ كأقدام الدجاجة حول عينيّ، حتى البوتوكس يجعل جبيني لامعًا مثل بلاطة مهجورة.

ـــــ أنت لا تزالين جميلة.

ـــــ أنا في الخمسين.

«النساء كالنبيذ الذي تشربينه يزداد حلاوة مع العمر».

ـــــ نبيذ أم حبّة عنب، هل شاهدت يومًا حبّة عنب عجوزًا تستجدي لتكون حبّة زبيب؟

«اقبلي الزمن».

ـــــ من دون تأفف! من دون حزن! من دون نحيب؟!

«إنّها خياراتك».

ـــــ لكنّ القدر تدخّل أحيانًا، من قال إنّني لم أحلم بأن أنجب من نضال أو من رامي؟

«حقًّا»؟

«أتذكرين مقولة أمّك الشهيرة عنك؟».

ـــــ أيّ واحدة؟

«أنّك تنجذبين تلقائيًا لأعطل رجل من بين مليون، تشتمّين رائحته ليعذّبك، وكلّ الناس يحسّون بذلك قبلها إلاّ أنت».

من قال لك إنّ عمر الخمسين يمرّ بلا شهوات جنسيّة جامحة؟

أعاود التكوّر في مقعدي الاستراتيجي، لأبتلع بقيّة كأسي دفعة واحدة، مع مجّة طويلة من سيجارتي ذات النسبة العالية من النيكوتين. أمارس حياتي كما أرغب تمامًا أن تكون، أشرب القهوة والنيسكافيه العادي لأتمتّع بالكافيين. آكل ما طاب لي، وأتمتّع بالدهون والسعرات الحراريّة وأرشّ الملح. لن آكل أبدًا طعامًا بلا دسم. ليس عندي أنصاف حلول؛ إمّا كلّ شيء أو لا شيء، رغم كلّ آلام البتر. هذا الأسلوب الذي أستخدمه في حياتي الشخصيّة هو منطق رجال الأعمال «الحدّ من الخسائر»، لا أطيق جرّ أذيال القصص فأحاول إنهاءها بقسوة، مستخدمةً كلّ الإستراتيجيّات النسائيّة المألوفة. أشحذ تفكيري لأتذكّر كلّ الذكريات السيّئة والعيوب. أعبئ ذاتي ضدّ ما آلمني، وأتخيّل سيناريوهات التدهور التي من الممكن أن تحدث عند استمرار العلاقة. أشوّش على الذكريات الجميلة، وأنبش نبشًا أيّ ألم لأستحضره، تمامًا كما فعلت عندما قرّرت إنهاء علاقتي بنضال، ومن بعده برامي. أصبح نضال، خلال الأشهر القليلة السابقة لانتهاء علاقتنا، أكثر تبجّحًا بمحاضراته الجنسيّة، فزادت مشاكلنا اليوميّة وسكنت هواجس الخيانة رأسي. كنت أصغد الحروب أحيانًا، وأعمل بمقولة «فاز من تبهلن» أحيانًا أخرى. أواصل الاتّصال به عشرات المرّات إذا لم يردّ على هاتفه، أغلق هاتفي وأزعل أحيانًا، أرسل إليه رسائل جارحة أسبّه فيها، وأعود لأبكي وأفكّر كيف أستجديه، وأشحذ كلّ ذكائي لأعود إلى أحضانه بدون أن أفقد كبريائي. لم يكن الحبّ هو الشيء الوحيد المؤلم: كان ما يؤلمني أكثر وقوعي في فخّ الجسد، جسدي الذي علّمه نضال الوصول إلى النشوة القصوى، بعدما كان يكتفي برحلات المتعة من غير وصول. كان جسدي يتحرّق شوقًا لنضال، للمتعة المكتشفة كلّ مرّة، والتحليق عاليًا إلى حدود لم أعرفها من قبل، أنا البيروتيّة المسلمة، بكل ما أحمله من إرث التقاليد والتربية الإسلاميّة، حرّرني نضال من فكرة العيب والحرام ـــــ نظريًّا في البداية ـــــ لأصل إلى جسدي بكلّ الجنون ومباهج الاكتشاف. على مدى الأشهر الأولى من علاقتي بنضال بذّرت الكثير من الأورغازمات يوميًّا، عدّة مرّات بشبق يصل إلى الإنهاك، كان الشبق يزداد ولا يهدأ، وشيئًا فشيئًا تعلّمت اللعب على حدود الوصول، من غير أن أصل. تعلّمت تمديد المتعة حتى الرجفة المزلزلة الصارخة. وتملّكني هوس شراء كتب التاوو الكاماسوترا وجغرافية الملذّات. تعلّمنا معًا كيف تبتهج حواسنا الخمس في احتفالاتنا الجنسيّة. على مدى سنوات رائعة، كنّا نطوّر كلّ حاسّة بما يتناسب وأمزجتنا. اخترنا الموسيقى والبخور وعطور السرير والإضاءة والشموع وكريمات أجسامنا معًا، لكن، مع الوقت والسنوات، تحوّل كلّ

الشبق والرغبة المتوحشة إلى تقنيات نمارسها بآلية. جنس خال من الأخطاء، لكنّ رجفة المتعة تحوّلت إلى رجفة البرودة والصقيع. لم يقاوم نضال ـــ وهو المولع بالاكتشاف والتجريب ـــ إغراءات الصبايا اللبنانيات، ولم تشفع لي كلّ محاولاتي المستميتة، وكلّ ماضينا الجميل. كنت دائمًا موجودة، وكنت أحبه كثيرًا، وكان واثقًا أنني لن أقوى على الابتعاد عنه، وكأنّ الدائرة قد أطبقت عليّ تمامًا.

أسكب كأسي الثانية، وأشرب الكثير من مشروبي المفضل، تتصاعد رائحة غريبة من منفضة السجائر؛ كالعادة أشرد وأنسى سيجارتي مشتعلة في المنفضة، وتخطر على بالي فكرة أنني سأحترق يومًا من وراء حادثة كهذه. تحترق الشهوات لتصبح رمادًا أحيانًا، وتكمن جمرًا تحت الرماد أحيانًا أخرى.

بعد سنتين من محاولاتي نسيان نضال ـــ عشت فيها على النزوات المتلاحقة ـــ اقتحم رامي حياتي كإله إغريقي، بكلّ جاذبيته ووسامته. فرض نفسه وأصبح جزءًا من حياتي. هيّأت حياتي المختلّة عاطفيًا والممتلئة مهنيًا، وكلّ الظروف له. كيف لا تقع امرأة في منتصف الأربعين بغرام هذا النموذج غير المتكرّر؟ هذا الشاب الهوليودي الطلعة تحسدها الكثيرات عليه أينما ذهبا.. على الرّغم من اختلاف عوالمنا، والفشل المعروف سلفًا الذي أدركناه من أوّل يوم؛ توسّطنا عميقًا، وانزلقنا كانزلاق جسدينا بعضهما في بعض حتى انعدام التمييز ما بينهما. عند التوغّل عميقًا أفقد أحساسي بجسده، وأشعر أنّه جسدي، فتدغدغني روائح جلده المسكرة. أشمّ جماله الجاثم فوقي كأطنان من الشهوات والنشوة. ينساب جسدانا كالحرير، وأدع شبقي يقودني إلى كلّ قطرات العرق النادرة في منحنيات جلده المشدود. ألعقها كمدمن اشتاق الوصال، فأتوه بين شعر صدره الكثيف، حتى تملّ الأسرّة من مكوثنا الطويل. أصابعه التي تحفظ تفاصيل جسدي تستطيع أن تلمسني كما أبغي تمامًا. بصمت متواطئ يهدهدني رويدًا دون الانزلاق في النشوة الكاملة ويدع رغباتي تنضج على نار هادئة، ويسكب أخيرًا عرقه الطازج وبواقي روائح عطره على شهوتي التي لا تنطفئ. لا أزال أذكر غرفته المتواضعة الحميمة حيث تكتظّ أشياؤه الصغيرة، وعبق بخور أخشاب العود، وصوت المكيّف الهادر، وزجاجات عطره الفارغة وشبه الفارغة، الملقاة كيفما اتّفق، ذلك العطر الذي لم يغيّره يومًا كأنّه وشم على جلده الأبيض، وخزائن ثيابه التي تتشابه قطعها جميعًا، بنطال الجينز نفسه، ومجموعة مستنسخة من القطنيات والسترات، وتوائم من الأحذية. ضحكاته الطفوليّة التي ترنّ في أذني، من حين إلى حين، تذكّرني بتفاصيله إلى الآن. أذناه الأنيقتان وأظافره الجميلة، ورموشه الكثّة التي تتحرّش بحاجبيه المقوّسين. لم أحسب يومًا أنّ كلّ تلك الاحتفالات الجنسيّة يمكن أن تؤدّي يومًا إلى ابتزاز عاطفي. لم يستطع رامي يومًا التخلّي عن شرقيّته، عن فكرة استحواذه على المرأة كلّيًا. ربّما خاف من طباعي وشخصيّتي، فاستعمل سلاحه البسيط؛ التسلّط، بمناسبة ودون مناسبة. أصابعه التي تلامس

جسدي وألمي خبيرة في منعي من الهروب منه في الوقت المناسب. أتذكّر كلّ حروبنا الصغيرة ما بين عشقه وإعجابه بي، وعدم استطاعته السيطرة والاستحواذ عليّ؛ مشاعر الذكورة تتطاحن مع عصريّته التي يعيشها، وشرقيّته المستوطنة في لاوعيه، كلّ مشاكلنا الصغيرة حول الغيرة والاتّصالات الهاتفيّة، واهتمامي المبالغ به، بعملي وعائلتي، أخفي وراءه ذعرًا من حزيّتي المقدّسة، ومعارك تنتهي بالانفصال برهة، ثم العودة السريعة للسقوط في فخّ الجسد وشبقه لهاوية أعمق؟ يحضر الجنس غزيرًا، وأكثر روعة، بعد الفراق، تختفي آلام الجسد وتزهر الشهوات، حتى الموسيقى نفسها التي كنّا نسمعها تصبح أقوى. وكراقصَي تانغو محترفين نتقن إنهاء العرض، وغالبًا ما انتقلت عروضنا من سجّادة إلى طاولة. حتى الباب لم يسلم من استعجالنا بعد سهرة صاخبة. كان هوس رامي الحقيقي المرآة، وكنت أجاريه في هوسه. غالبًا ما كنت أسرق أفكارًا من أفلام وروايات، وأطبّقها على متعتنا، كأنّني ابتكرتها بنفسي: العسل والشوكولا السائلة والكريما الطازجة التي أمرّغها على عريه، وألعقها بشغف جامح. الانتقال من البرودة إلى السخونة والعكس، يلهب شهوته ويحفّز جسده الحارّ، فنلتهم بعضنا بعضًا حتى نتساقط كأوراق الخريف. اكتشف رامي هوسي، فبدأ يلعب به ككارت رابح. ذوت العلاقة كنباتاتي التي أهملت سقيها خلال جنون علاقتي برامي. لم تعد قفشاته وغمزاته في السهرات تضحكني، بل ترمي في نفسي ألوان الشكّ. ازداد غروره وحرمانه لي، ليجبرني على مراضاته طوال الوقت. تحوّل شعوري بالمتعة إلى شعور بالمهانة أمام رغبات جسدي وإحساس الشباب الذي يهجرني. كان سلاح رامي قاتلاً، انتهت القصّة بالهروب، لا بموت الحبّ. كنت مدركة تمامًا أنّ الجمر مشتعل تحت الرماد، حاول من بعيد استرجاعي، محافظًا على كرامته، لغاية ثلاث سنوات مضت، لكنّني كنت أهلع لفكرة رؤيتي لنفسي مرّة أخرى كما رأيتها معه في نهاية العلاقة؛ الهزيمة وغلبة الزمن. لم أشكّ يومًا بحبّه لي، ولا بكيمياء جسدينا. أخبرتني روعة، منذ فترة، أنّها شاهدته صدفة مع زوجته وابنه. ابتسمت حين وصفت لي زوجته التي تشبه داعرات العشرة دولارات بشعرها الأشقر الفاتح المصبوغ، ومكياجها المبالغ به، ربّما شمتّ به. من قال إنّني لست شرّيرة أحيانًا؟

نعم أنا شرّيرة أحيانًا، لم أزل أشعر بالتشفّي من إخفاقات نضال المستمرّة، ومن سوء اختياره لصديقاته. أستعمل طرقي الملتوية لمعرفة أخباره عبر أصدقاء مشتركين: من هنّ؟ ما مستواهنّ التعليمي والجمالي؟ ماذا يعملن؟ ما وضعهنّ الاجتماعي؟ وتغمرني سعادة بالغة من فشله

المتكرّر بعدي، وعدم صمود علاقاته لفترة طويلة؛ وهي أنّه لم يتزوّج. أسعد حين تتمّ مقارنتي بهنّ، ثم أدّعي أنّ الموضوع لم يعد يعنيني بتاتًا، لكن بعد الاستماع إلى الحديث كاملاً. حقدي على رامي اشتدّ، خاصّة حين عرفت أنّه يتمتّع بأسرة: زوجة وطفل؛ طفل سينكّد عليه ليله. وأنا الآن أجلس بهدوء مع ذكرياتي، وكلبي العجوز الذي يصبح أكثر صمتًا وحزنًا، وأقلّ حركة مع تقدّمه في العمر، وزجاجتي وسجائري وكامل حرّيّتي، ولكن على من أكذب؟ طفل ينكّد؟ أو طفل يبعث حياة في هذا الفراغ؟ على من أكذب؟ أريد طفلاً بأيّ شكل من الأشكال، ولكنّ الزمن لن يعود إلى الوراء، فلأصمت، لن يجدي الندم.

ألن أهدأ بعد كلّ هذا العمر؟ ألن أستسلم قليلاً؟

رشفة أخرى، وشعور لطيف يدغدغني، فأتذكّر بعض الأغاني التي نشأنا عليها، أنا وجيهان وروعة، نتركها فترة ونعود إليها على مدى سنوات، نحن الجارات الثلاث، باختلافاتنا وتشابهنا. جيهان الطفلة المدلّلة بين إخوة ذكور والترف الماذي الذي حسبناه ميزة، فاتّضح أنّه أصل الشك الذي يلازم حياتها. وروعة المهملة التي تعيش على هامش أسرة لا تهتمّ إلاّ بالمظاهر. وأنا المرتبكة، المستغرقة في أحلام اليقظة، يصفعني الزمن دومًا، ويعيدني إلى أرض الواقع. جيهان الجميلة، البنت الوحيدة بعد أربعة شبان، كانت أمّها ـــ رحمها الله ـــ تقول إن جيهان كانت أجمل خطأ في حياتها. خافت جدًا حين حملت بها لأنّها تجاوزت الأربعين، وكان زوجها يعاني من ارتفاع معدّل السكّر في الدم. ولكن ما إن أنجبتها حتى انقلبت حياة العائلة، وأصبحت لعبة إخوتها الشباب وسلوى والديها الكهلين، ومحظ تسليتهما واهتمامهما. في ذلك الوقت، دفعت الظروف إخوتها للسفر بعد أن أنهوا دراستهم في الجامعة الأميركيّة، منهم من لحق بأخواله للعمل في المملكة العربيّة السعوديّة، ومنهم من سافر إلى أميركا لنيل شهادات أعلى، وبقيت جيهان مع والديها في بيروت، هي المتعجّبة من الطرح الدائم وندرة تسليط الضوء على الأغنياء، عاشت جيهان، المهمومة بمآسي الفقر والجوع ومعاناة الأطفال، حياتها كلّها أسيرة الشك وفقدان الثقة في من حولها. حبّها تحوّل إلى كراهية لجميع قريباتها؛ فمنذ طفولتها رأت في أعينهنّ الحسد للرفاهيّة التي تعيش فيها، وتدليل والديها وإخوتها. أما بناتهنّ الصغيرات فكنّ بالنسبة لها مأساة حقيقيّة، لأنّها لم تستطع أن تميّز حقدهنّ المبطّن بالتزلّف. مثّلت غرفة جيهان وخزائنها وعرائسها حلمًا لكلّ الصغيرات، ونقمة عليها هي نفسها، حجرتها الزهريّة بتدرّج ألوانها باللون الفاتح، وسنائرها الفوشيا كمسرح الدمى، والسرير الذهبي الكبير كسرير الأميرات، يغطّيه مفرش فخم مبطّن بلون الستائر. لا زلنا نذكر محبّتها الفائقة لقصّة «الأميرة وحبّة الفول» في عمر السابعة، ممّا جعلها تصرّ على والدتها لتزيد فرشة إضافيّة، وكثيرًا من الوسائد إلى السرير. وكان لها دائمًا ما أرادت؛ فازدانت الغرفة بالكثير؛ كان أجمل ما فيها لوحة فرنسيّة فوق السرير للبهلوان بيار الحزين. كنّا مسحورين بالدمعة اليتيمة على وجهه الكلسي المدوّر، بعينيه السوداوين، والنقاط الثلاث البيضاء التي تشي بوحدته، ولباسه الكارو بلونيه الكحلي والأبيض، مع طنطور طويل، والكرة التي يحملها بألوانها العديدة الصارخة وياقته البيضاء التي تزيّنها أزرار حمراء كبيرة تشابه أنفه. رغم جماله الأخّاذ كان بيار يختزل كلّ تعاسة العالم. خزائن ألبسة وأحذية جيهان رواية أخرى ومحزن أساسي إضافي

للحقد عليها؛ فمن الفساتين الخالدة في ذاكرتنا ذلك الذي أحضروه لها من روما لزفاف أخيها الكبير، لم يكن مكشكشًا أو بطبقات كما كان دارجًا، بل كان أبيض مع زنّار أحمر عريض وطويل، ورسمات يدوية زيتية لأزهار حمراء متعذدة على مدار تنورته الكبيرة، تحافظ على شكلها طارة داخلية كفساتين المطربة صباح في ذلك الزمن. احتوت العلبة المرافقة للفستان على تاج صغير، وشريط أحمر لتضعه حول رقبتها. أمّا الأهمّ فهو الزهرة الحمراء التي وُضعت على جانب صدرها للشياكة من جهة، ولتؤنس البياض في القسم العلوي والصدر المفتوح براحة من جهة أخرى. حاولت جيهان جاهدةً أن تمنع قريباتها من الدخول إلى مملكتها، لكن، تحت وطأة نظرات أمّها اللائمة، رضخت للأمر الواقع ولدخولهن للّعب معها. كانت الزيارة غالبًا ما تنتهي بكسر أيّ شيء، وببكاء مرير لجيهان. ثم أصبحت تكتشف أنّ هناك تخريبًا متعمّدًا من وراء ظهرها، من ربطة حذاء منزوعة، أو جيب فستان ممزّق، أو عروس مكسورة مخبّأة في رفّ الألعاب. انتابت جيهان لفترات نوبات من العدوانية والحزن والوحدة، لكنّها سرعان ما كانت تعاود سيرتها الأولى وطبيعتها اللطيفة المرحة حينًا، والحزينة الوحيدة، فنلازمها أنا وروعة، أحيانًا أخرى. جيهان أجملنا وأطولنا، أوّل من حاضت فينا، واشترت لها أمّها حمّالة لصدرها، فحقدنا عليها يومها. ولكنّنا تعاطفنا معها إذ آلمها صدرها الصغير حين حاولت ابنة صديقة لوالدتها أن تمضه وترضعه. كانت هذه الصبيّة تأتي دائمًا مع أمّها لزيارتهم، ولتساعد جيهان في دروسها، فتدخلان إلى الغرفة وتغلقان الباب وراءهما، أقنعتها الصبيّة بأنّهما إذا ضغطتا حلمتي صدريهما ببعضهما البعض فسيعطيهما هذا شعورًا ممتعًا، ويساعد نهديها على أن يكبرا. أعجبت الفكرة جيهان وأمتعتها المداعبة في البداية، ولكن ما إن ابتدأت الصبيّة مضّ صدرها بقوّة حتى انزعجت وتمنّعت. علّلت الصبيّة هذا بضرورة إبراز الحلمة إلى الخارج، بدل أن تبقى خجولة ومستترة في الداخل، وقالت لجيهان بالحرف الواحد: «الألم أوّل طريق اللذّة يا حمارة». تجرّأت الصبيّة بعد عدّة مرّات، وقادتها إلى سرّ لذّة أكبر في مكان أكثر حميميّة. أمتعت الحكاية جيهان أكثر، وجلست وظهرها للباب ـــ تحسّبًا ـــ لتغلقه إذا ما دخل أحد. ويبدو كأنّ الصبيّة تلمّ شيئًا أوقعته على الأرض، فتحت رجليها وهي تلبس تنّورة المدرسة؛ شعور دافئ جميل دغدغ جيهان، ولزوجة لم تعرف مصدرها غطّت الشعيرات القليلة المعدودة التي بالكاد بدأت بالبزوغ. لم تعجب جيهان فكرة أن تبادل الصبيّة الفعل، لكنّ جيهان أحبّت هذه الألعاب كثيرًا، وأحبّت إذلالها للصبيّة، فبعد أن تنتهي من متعتها تهرب منها

وتتحجج بأيّ شيء، كي لا تضطر إلى أن تلعقها. استمرت جيهان بلعبة القطّ والفأر، واستغرقت الصبيّة وقتًا طويلاً جدًا كي تفهم وتتوقّف عن زيارتها مع والدتها، لكنّها كانت تعود إليها بين وقت، وآخر، تتوسّل المتعة، فتسمح لها جيهان أحيانًا وأحيانًا لا تسمح، إلى أن سمعنا خبر خطوبتها، واختفت منذ ذلك الوقت تمامًا. لم نفكّر بتغيّر ميول جيهان، بل نظرنا إلى الأمر على أنّه لعبة جريئة من شيطنات جيهان التي لا نجرؤ عليها.

كنّا نحن الثلاث نكره المدرسة، لكنّ جيهان أكثرنا كرهًا، أسمتها «حبس النسوان»، بالرّغم من أنّها أكثرنا مثابرة ومشاكسة للمعلّمات. هي الأذكى والأشطر، تنافسها روعة بصبرها على الدرس وتأنّيها في الحفظ والخطّ. لم أنافسهما يومًا على الأوّليّة. كانت أحلام اليقظة التي أغرق فيها تسلبني تركيزي، وبالكاد ألحق بالصفّ، لتتراوح نتائجي ما بين الاجتياز والجيّد، وما إن يظهر مؤشّر الخطر في علاماتي حتّى تهرول الاثنتان من منزلهما القريب إلى بيتنا لمساعدتي، من وراء ظهر أمّي. لم تهتمّ المدارس في تلك الأيّام إلاّ بالموادّ العلميّة والأدبيّة، أمّا الفنون، كالموسيقى والرسم والرياضة، فلم تكن ذات أهمّيّة ولا علامات لها. كانت حصّتنا المفضّلة هي الرياضة، مع معلّمة أثّرت فينا كثيرًا. فالسيّدة وديعة جزّار رشيقة ومثاليّة القوام، لها مشية تشبه تهادي الفرس الأصيلة. أحببنا لباسها ذا اللون الأسود الذي لم تخلعه قطّ، السروال الضيّق والقميص السادة يزيد بشرتها البيضاء جمالاً، بشعرها الأسود المزرقّ، اللامع، المشدود إلى الأعلى على شكل ذيل حصان. من شدّة إعجابنا بها، تعلّمت أن أمشي مرفوعة الرأس منتصبة الكتفين، وأركّز في لباسي على الأسود الضيّق. لم يكن في مدرستنا مدرّسات متميّزات كالسيّدة وديعة، أكثرهنّ سيّدات أقلّ من عاديّات، متزوّجات أو عوانس؛ كنّ مثار سخرية جيهان اللاذعة. كانت المدرسة سجنًا بالنسبة لنا في ذلك الوقت، لكنّني حين أستعيدها الآن أراها أجمل أيّام حياتنا.

في الجامعة، انهمكت جيهان بسمير وبالنضال السياسي، وعلاماتها المتميّزة حتّى نيل الماجستير، وخلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة، انخرطت جيهان في الدفاع المدني تطوّعت رغم بكاء واستجداء أمّها وتوسّلات أبيها. لم يثنها شيء عن القيام بما اعتبرته واجبًا إنسانيًا وقوميًا في ذلك الوقت. اختارت الدوام الليلي الأصعب والأخطر، حيث ينتشر القنّاصون ليلاً مثلها، ويتسلّون في أحيان كثيرة بالتصويب على منقذي الضحيّة. كانت تعود إلى المنزل، فجرًا أو صباحًا، مضرّجة بدماء المصابين، تصدر منها تلك الرائحة الزنخة. ورغم الحمّام الساخن والصابون الوافر، تبقى

صور المشوّهين والجثث والمصابين تفوح في عقلها. تحكي عن قنّاص قتل قنّاصًا آخر، وحاولوا إنقاذه ولكنه كان يضحك ويغنّي بينما تتدلّى أمعاؤه. فصلته كفيّة الحشيشة والمخدّرات والكحول عن العالم حتى قبل الموت. هذا الشابّ الذي لم يتجاوز السابعة عشرة، ظلّت صورته محفورة عميقًا في نفس جيهان. إحدى الصور رسّخت إحساسها بعدم العدالة الإلٰهيّة، شباب يموتون أبشع ميتة في الشرق الأوسط، وآخرون مترفون في البلاد السكندنافيّة. بدأت سخريّتها المريرة تلذعنا حين يتكلّم أحدنا عن الحمية مثلاً: فتذكّرنا بأطفال المجاعات الأفريقية أو مرض السرطان. أدمنت الكحول، وأخذت تروي لنا كوابيسها المستمرّة التي تطاردها خلال نومها القليل المتقطّع، في أيّ وقت من النهار أو الليل. فمرّة لازمها كابوس أنّها تمشي في القدس على طريق الآلام التي مشى عليها المسيح، وحجارة جدران تلك الأزقّة تتهاوى، فتحاول بمفردها أن تسندها. بعد أن تركت سمير ودخلت مرحلة «التخبيص» ـــ كما كانت تسمّيها ـــ تحوّلت الكوابيس إلى أحلام كوميديّة بجميع الرجال الذين عاشرتهم ما بعد سمير، فأصبحت تضفي علينا البهجة كلّما تكلّمت عن عشيق سابق، خاصّة بعد شربها عدّة أقداح من نبيذها الفاخر المختار بدقّة وخبرة. حينها يخفّ الحرج فتجيب على أسئلتنا الجنسيّة الفضوليّة السخيفة والبذيئة خاصّة. باسم أوّل القصص وأطرفها على الإطلاق. اختارته ـــ حسب اعترافها ـــ لأنّه نقيض سمير. فهو بدون شخصيّة أو إيديولوجيّات. فضّلت غباءه على الفلسفة والتنظير. كان عاطلاً عن العمل، يكتفي بالجلوس لبعض الوقت في صالون التزيين النسائي عند أخيه على الصندوق للقبض، قليلاً، ولتسلية الزبونات، وقتًا أطول، وطبعًا ليقترح أفضل القصّات والتمشيطات حسب شكل وجه السيّدة ـــ استشارة مجّانيّة ـــ ثم يتسوّق مع أمّه ويوصلها ويساعدها، ولا بأس بلعب الورق مع صديقات الوالدة والتسرية عنهنّ، بعد الظهر والمساء خلال الشتاء. أمّا في الصيف فيفضّل أن يذهب إلى البحر ليكتسب اللون البرونزي، أ ويرافق أشباهه من الأصحاب. أضافت جيهان الكثير إلى حياة باسم وأصبحت محورها. تمتّعت بهذا القدر من الاهتمام في البداية. يتّصل بها كلّ نصف ساعة للاطمئنان عليها وإخبارها ماذا يفعل، بالتفصيل المملّ، ويسألها عمّا تفعل بدقّة، ثم يتواعدان للذهاب والترنّض على الروشة، ويحاول أن لا يتأخّر، رغم أنّه بحاجة للكثير من الوقت للاعتناء بنفسه، فهو يبرد أظافره ويدلّك كعبي قدميه للمحافظة على نعومتهما. لمّا ابتدأ الإحباط يصيب جيهان سألته عن سبب عدم التحاقه بوظيفة أو عمل، فقال لها إنّ هناك سرًّا جللاً في

حياته سيخبرها به في حينه. في تلك الفترة أصبح باسم مصدر ضيق لجيهان، وإحراج لها أمامنا، ففي إحدى الجلسات حلف لنا: «وحياة عيوني عالغالي» أنّ قطّة جارتهم عاشت أربعة وعشرين عامًا.

بعد انتهاء إحدى السهرات وشرب الكثير من الفودكا، جاءت المرّة الأولى التي مارست فيها جيهان الجنس مع باسم، كان أوّل رجل يلمسها بعد سمير، وكم كانت دهشتها عظيمة حين تعرّى أمامها منتصبًا، وقضيبه متعرّج على شكل زيغ زاغ. حاولت المسكينة جاهدة، وهي سكرى، أن تخفي ضحكتها الساخرة حفاظًا على مشاعره. وفي خضمّ محاولاته لإيلاج ذلك الشيء الثعباني الملتوي النحيف فيها، أدركت فداحة خطئها، حاولت أن تظلّ مبتسمة، وفي رمشة عين أدركت مدى تفاهة الحياة.

في يوم صيفي شديد الحرارة، شاهدنا أنا وروعة وجيهان باسم للمرّة الأخيرة في منزل جيهان، واختفى من بعدها. قال لجيهان بأنّه سيضطرّ للسفر إلى بلد أفريقي، ولن يستطيع الاتّصال بها، وسيخبرها بعد مجيئه عن السرّ المهيب في حياته. لم يمرّ هذا الأمر على جيهان، وأحسّت بأنّ هناك خدعة، خاصّة حين قال لها إنّه سيكون في أفريقيا، ولن يستطيع الاتّصال بها هاتفيًا أبدًا. أرسلت جيهان محاميها للتحرّي عن اسمه، وكم كان حدسها صحيحًا؛ فقد كان يقضي حكمًا قضائيًا لحيازته مستندات مزوّرة خلال الحرب. عند عودته الميمونة، أخبرته جيهان بانتهاء العلاقة ومعرفتها بكافّة تفاصيل غيابه، لكنّه أصرّ على الحضور بوجودي وروعة، وكان ذلك الاجتماع الشهير. فقد استهلّ حديثه عن صديقتنا القليلة الأصل التي تستغني عن حبيبها في أوّل هبّة ريح. دافعت عن صديقتي بقولي إنّه كان عليه أن يبلغها حقيقة الأمر لتستطيع أن تختار، بدلاً من أن يضعها أمام الأمر الواقع. كأنّ بركانًا قد انفجر من السباب، يكيله كيفما اتّفق على جيهان، واصفًا إيّاها بأقذر الصفات، ناظرًا إلينا لنؤكّد أقواله، فجيهان، حين وطئها لم تكن عذراء، هذه الداعرة التي فكّر بالتنازل والزواج منها، وبتواطؤ ضمني بيننا نحن الثلاث. صمتنا وطأطأنا رؤوسنا واستمعنا له لندعه يخرج مكنونات صدره وننتهي من هذه القصّة. استغرق الصريخ والإهانات وقتًا طال، وفي النهاية هدّدنا بأنّه سيفضحها أمام كلّ عائلتها، وسيراسل إخوتها الشباب في المملكة ليتصرّفوا معها، ويقطعوا عنها المصروف الباذخ، وسيجعل سيرتها النتنة على ألسنة كلّ أهل بيروت. بكثير من الهدوء استوعبته روعة، وبلطفها المعتاد كلّمته عن القسمة والنصيب، وأنّ عنده أخوات بنات ما زلن تحت نصيبهنّ، وأنّ الله قد أمر بالستر. استعانت روعة بالكثير ممّا تحفظه من آيات قرآنيّة وأوامر ربّ

العالمين: بغضّ النظر وكتم الغيظ وستر الولايا. كان الدين هو الثغرة التي نفذنا منها، فما كان منه إلاّ أن هزّ رأسه وخرج. بعد هذه الجلسة والانتهاء من هذا الكابوس توتّرنا للحظات، ثم أصابتنا هستيريا من الضحك على منظر ضحيّتنا.

لم تكن القصّة الأخيرة من قصص عشّاق جيهان ـــــ قصّة غسان ـــــ بسيطة، ولا مغامرة بلهاء بل موجعة، انتهت بجرح صامت تنبّأت به؛ إنّ غسّان رجل متزوّج، لكنّ شعور روعة بطيبة وفرحة جيهان وانطلاقها في الحياة مجدّدًا جعلها تتحمّس وبالتالي تشجّعها. غسّان مخادع كاذب ومحتال لئيم، رغم ما يبدو عليه كرجل أعمال راقٍ، ورغم تأنّقه في الكلام، فهو يخفي الكثير من النتانة في تعامله مع من حوله. رأسمالي حقيقي، يعمل لمصلحته الشخصيّة الخالصة. وحين تنتهي الفائدة المرجوّة يختفي. حين التقى غسّان وجيهان، بعد سنين مصادفة ـــــ كانا على معرفة سطحيّة أيّام الجامعة ـــــ عاملها ببالغ الرقّة، ودعاها أكثر من مرّة لاحتساء القهوة أوّلاً، ثم إلى العشاء لاحقًا واشتكى لها ـــــ ككلّ المتزوّجين ـــــ مُرّ الشكوى من انقطاع علاقته مع زوجته التي ارتبط بها تقليديًّا من دون حبّ، وأنجب منها أولاده الأربعة، ثم أتت المشاكل لتقتل الانسجام والودّ. صدّقت جيهان أنّ أخلاقه وحسن تربيته وتقاليد العائلة ومصلحة الأولاد تجبره على احتمال زوجته المريضة الأعصاب، والمهووسة بالنظافة، والتي تشكّ فيه، فهو ضحيّة حياة قاحلة المشاعر، وله الحقّ بالحياة والحبّ. دعمته جيهان بكلّ حنان، أرادت أن تكون الصورة المشرقة في حياته وتصرّفت على طبيعتها، رفضت أن تأخذ منه هدايا، بكلّ كرامتها وأنفتها العالية، حتى خروجها النادر معه كان إلى مطاعم وأمكنة بعيدة متواضعة، أو إلى المنزل حيث تهيّئ له جوًّا ساحرًا. خشيت أن تسيء له، هو المتزوّج، في مجتمع لا يرحم. لم تستمرّ العلاقة سوى بضعة أشهر وانتهت فجأة حين قرّر غسّان أن يتجاهل اتّصالات جيهان. ظنّت في بادئ الأمر أنّ مرضًا أصابه، أو أنّه واقع في مشكلة حقيقيّة، لم تفطن للحظة أنّ نزوته النسائيّة انتهت، وأنّ المناضلة الجميلة التي تعرّف عليها في الجامعة، ولم يستطع الاقتراب منها لانشغالها بالقضيّة والمظاهرات الطلاّبية، وبقصّة حبّ مع سمير زميلها الذي يشبهها، بهت بريقها بعد أن نالها واكتشف كلّ تفاصيل حياتها التي لم يستطع مجاراتها. كان غسّان يجلس معنا في حلقات النقاش السياسي التحضيري للمظاهرات، ويستمع مبهورًا إلى جيهان، لكنّه عاجز عن الخوض في تلك الأحاديث، ويكتفي بالاهتمام بمحاضراته، والتهيّؤ لمستقبل يكون المال عماده الأساسي. بعد عدّة أيّام

من التهرّب، أيقنت جيهان أنّ كلّ العلاقة كانت مجرّد نزوة. جُرحت جيهان جرحًا عميقًا، وعاودتها نوبات الشك المؤلمة التي كانت تنتابها كلّ حين، ذات مرّة، وقفت أمام المرآة وسألت روعة وسألتني: هل أنا قبيحة من الداخل لدرجة أنّ جميع من حولي لا يهتمّون إلاّ بجسدي ومالي؟

هل نفسيّتي مشوّهة وقبيحة لدرجة أنّ مظهري فقط يجذب الآخرين، فيستفيدون منّي، ثم يرحلون دون أدنى تفكير بمدى ألمي؟

ترك الجرح ندبة كبيرة سكنت عميقًا، ولم تشف منها جيهان أبدًا.

جيهان الجميلة، بعزلتها الصاخبة، مخلوقة ليليّة تشبه نفسها دائمًا بالبومة، وتدافع عن تشاؤم مجتمعاتنا منها، بينما هي صاحبة أجمل عينين بين الطيور. حبّ جيهان للحيوانات امتدّ أخيرًا إلى الحمير والخنازير وكلّ الحيوانات الضعيفة، وأصبحت تتحفنا بنظريّاتها الدفاعيّة عنها. الحمار لأنّه صبور ومطيع، يحمّلونه فوق طاقته، ثم يستهزئون به، والخنزير لأنّه لا يشتكي، يتركونه في أوساخه ثم يطعمونه أيّ شيء ليسمن، ثم يحتقرونه بعد ذلك، ويتّهمونه بالنجاسة. هكذا، أصبحت جيهان ترى البشر؛ معظمهم قساة مستغلّون. أفكار جيهان الخصبة لا تنتهي، واهتماماتها الغريبة تتغيّر كلّ فترة، فتثير دهشتنا إلى الآن؛ من المسلسلات إلى تركيب العطور وتجارب الطبخ. وأعترف أنّها دائمًا ما تنجح في كلّ هذا بتفوّق يثير الإعجاب. «فمسرح التوابل» كما تسمّيه مدهش، تخلط مكوّناته بما يشبه السحر، بدون أيّ زيادة أو نقصان. تؤكّد لنا أنّ الطبخ فنّ وهواية، وأنّها تطبخ لنا بحبّ، وهذا أهمّ ما في الموضوع. جيهان تشتمنا دائمًا وتعتبرنا سببًا أساسيًّا لجلب الخادمات الفلبينيّات إلى المنازل. ظلّت ترفض لوقت طويل أن يعيش معها أيّ مخلوق غريب ويكبّل حرّيّتها، ولكن ما باليد حيلة، فألم عمودها الفقري يتزايد مع متطلّبات النظافة في المنزل الكبير، وجلي الصحون الذي لا ينتهي من هواياتها المفضّلة؛ الطبخ. بيتها الجميل متعدّد الوجوه، ويشبهها بألوانه الحارّة وروائح البخور والسجّاد العجمي الثقيل الذي يعطي دفئًا وراحة. تتقن جيهان تنفيذ مقولتها التي طالما ردّدتها: التفاصيل هي الإنسان: الشموع والتحف موزّعة بأناقة بالغة من دون ادّعاء، الصحون القديمة المرسوم عليها روميو وجولييت تشي بالأصالة، حتى المنمنمات في الحمّام تنمّ عن ذوقها المرهف. فهي تكره ما تعارف عليه البيارتة من أثاث، ضمن كرهها لأفعل التفضيل، أفعل التفضيل الذي كرهته جيهان منذ أن كنّا في المدرسة، كأجمل الناس وأشرفهم وأصدقهم... إلخ الأمور نسبيّة ـــ عندها ـــ دائمًا.

أعاود شرب الكأس التي ابتدأت بالنقصان، وأحسّ بالأسى لأنّها شارفت على منتصفها. جيهان وروعة وأنا، والكثير من الصديقات اللواتي أصبحن ينتمين إلى عوالم مختلفة. وبيروت مدينتي: طفولة ومراهقة وشباب، تمزّقت بهجتها بكلّ أشكال العنف من حروب طائفيّة وأهليّة ومعارك أزقّة، وتصفية الفصائل الفلسطينيّة بعضها بعضًا، وتدخّل جميع أنظمة العالم، ودعمها المالي للميليشيات المتناحرة، والاغتيالات، والاجتياح الإسرائيلي، احتلال مقنّع، حروب إلغاء وتحرير، اقتتال أبناء المذهب الواحد والطائفة الواحدة، عداوة الحلفاء وصداقة الأعداء. كلّ شيء مرّ

على بيروت وعلينا، عند اشتداد الأزمات لا يبقى في بيروت سوى أهلها الأصليّين، من لا قرى لهم يلوذون بها، بيروت، بطبيعتها الجغرافيّة المحاصرة بالبحر والمطار والجبل والمنطقة الشرقيّة، تعود ضيعة في هذه الأوقات، وتتقوقع على عائلاتها وتقاليدها وعاداتها، وترتاح من الغرباء ـــــ الغرباء الذين يُعرفون على الفور من أسماء عائلاتها. نحن الثلاث تمرّدنا على الكثير من الطقوس، على عنصريّة الطوائف، لكنّنا اليوم نعود إلى طوائفنا التي ننتمي إليها، نلوذ بها ممّا عانيناه من أهوال وتمزّق من أجل لبنان الذي ارتضيناه وطنًا لنا، دون هجرة أو سعي للحصول على جنسيّة أخرى. تجربتنا مثل الكثيرين. جيهان أكثرنا تمرّدًا، هي التي عادت بقوّة إلى حضن الطائفة والعائلة، ليست متديّنة بالقطع، لكنّها عادت للتعصّب المذهبي وتفاصيل الحياة اليوميّة. هل كان هذا نقمة منها على كلّ سنوات النضال والكفاح؟ أم هو إحساسها بإحباط أحلامها، هي ذات الثقافة الرفيعة وصاحبة شهادة الماجستير في الصحافة؟ جيهان ترى أنّنا، في هذا الزمن، نغرّد خارج السرب، عكس فتيات هذه الأيّام المتشابهات حتى في الشكل، عمليّات التجميل التي انتشرت كالوباء جعلتهنّ مستنسخات عن فنّانات، بالأنف الصغير نفسه والشفاه الكبيرة والخدود المحشوّة، أو محجّبات كمعظم صديقاتنا السابقات في المدرسة، هربن من الدنيا ليحلمن بجنّات الخلد في الآخرة. تكتفي جيهان بصداقتنا نحن الثلاث، لم تعد تسطيع المجاملة، روعة هي الوحيدة بيننا التي تحتمل بحبّ، حتى ما لا يعجبها، عكسي أنا المكتفية بإخفاقاتي المتتالية، الفاقدة الطاقة على احتمال أيّ أحد ومشاكله. تغتاظ جيهان من روعة، وتؤنّبها أحيانًا على رضوخها وانصياعها، وعلى انصهارها في بوتقة الآخرين؛ أمّها أوّلاً ثم حماتها وبنات حماتها.

أملأ فمي بقطعة جبن وجرعة من النبيذ، بدأت أشعر بالجوع كما خفّت بعد الكأس الثانية، وأثنيت على عبقريّتي التي دفعتني لأن أحضر كافّة ما أريد، وأضعه متناول يدي. عصرت حبّة الفراولة في فمي بعدها كما يُعتصر قلبي على روعة، روعة المخلوقة اللطيفة بكلّ قدرتها على الابتسام وعلى متابعة حياتها المعتادة يوميًا بمرح، رغم هذا الكمّ الهائل من المعاناة. لم تكن روعة يومًا من النوع المبادر، لكنّها كانت المؤازرة لنا منذ طفولتنا. تخترع لي ولجيهان الحجج لنتمكّن من الخروج من المنزل، للقاء الشباب أيّام المراهقة، وتتولّى ضبط الوقت وإقناع الأهل، خاصّة عندما تطول بنا النزهة وتسرقنا النزوات، بينما تعجز عن الإقدام على أيّة مغامرة عاطفيّة، أو عن الخروج في مظاهرة في عزّ الحماسة السياسيّة

التي استغرقتنا في الجامعة. تؤيّد كلّ المطالب وتدعمها ـــ نظريًا ـــ مكتفية بانتظار عودتنا على شرفة منزلها المجاور، يملأها الرعب والخشية من إصابتنا بأيّ مكروه. خبّأت عنّا كلّ آلام الطفولة، ولم نعرف عنها شيئًا إلاّ في أيّام الجامعة، فأصابنا الذهول لهول ما عانت.

لم تمرّ مغامرة روعة الجنسيّة الأولى بسلاسة كما مرّت مغامرة جيهان. فالتجارب التي خاضتها تركت جرحًا عميقًا لم تمحه الأيّام، لم تنس ولم تسامح، بل تجاوزت الألم إيمانًا منها بأنّ المرء ممنوع عليه الاسترسال في عقده النفسية بعد الحادية والعشرين. لم تحدّثنا روعة عن زوج قريبتها وصديق والدها إلاّ أثناء الجامعة، حين ظنّت أنّها تجاوزت نفسيًا محاولة اعتدائه الفاشلة عليها، ولكنّ محاولتي نجحت مع شقيقتها هبة. كانت تدعو هذا القريب «عمّي» علي. يأتي لزيارتهم دائمًا هو وزوجته، كان هذا «العمّ» يضمر لوالدها أشدّ مشاعر العداء والحقد التي تجسّدت في محاولته الاعتداء على الطفلتين أثناء استضافتهما في أحد المصايف. وحين واتته الفرصة انقضّ عليهما، أسعف الحظّ روعة وهربت إلى الشرفة، ووقفت على حافّة البلكون. خاف أن ترمي نفسها فعاد إلى هبة التي كانت نصف نائمة وتمكّن منها، لم تجدِ توسّلات الطفلتين. كان قد أقسم أن يذلّ أباهما ويكسر رأسه دون أن يدري. لم يكن يقصدهما، بل يقصد إهانة الأب الذي لم يعرف يومًا ما أصاب ابنتيه أو أفقد ابنته الطفلة عذريّتها، ولم تتجرأ الأختان على ذكر الحادثة. أصبحتا أكثر قربًا، لكنّ شعورًا بالذنب ظلّ يلازم روعة تجاه أختها الصغرى، شعرت أنّ هروبها كان السبب، ولو أنّها تركته يتمكّن منها لنجت أختها. اكتفت هبة باجترار ألمها وحيدة، وارتضت مشيئة القدر، بل أشفقت على روعة أختها وأمّها الصغيرة، رغم فارق السنّ البسيط بينهما. كانت هبة الضحيّة ولكنّ روعة الأكثر دمارًا. اختلفت تجربتها الجنسيّة الثانية، فقد كان صديق والدها ـــ الأستاذ راتب ـــ يعاملها بلطف شديد، لم يكن في نيّته إيذاؤها أو إيذاء والدها. كان مهووسًا فقط بالفتيات الصغيرات الشقراوات، وكنّ روعة غرامه الكبير. لم تنمّ هيئته الخارجيّة أو تصرّفاته عن شبقه الجنسي؛ فهو مدير مرموق وثري، شكله من النوع العادي بنظّارتيه وكرشه المتوسّطة، حليق وأنيق دائمًا ببذلاته وربطات عنقه الغالية الثمن، وحذائه النظيف اللامع دومًا. فالأستاذ راتب دقيق، حتى في أبسط التفاصيل، قلمه، ساعته، اختياره للعطر، ذلك العطر الذي ما إن تشمّه روعة، ولو في الطريق، حتى تُصاب بالغثيان. منذ أن كانت طفلة أحسّت بغرابة معاملته لها هي التي يميّزها عن بقيّة الأطفال. في السابعة من عمرها يضعها على صدره ويزيح

سروالها الداخلي من تحت الفستان بأصابعه، ويهزّها لتحفّ بساقه. يكلّمها برقّة بالغة. ويهديها أجمل الهدايا. كم من مزة تمنّيت أنا وجيهان أن يكون عندنا عمّو راتب، خاصّة عندما كان يسافر إلى فرنسا وإيطاليا ويأتي لها بأجمل الفساتين وشرائط الشعر، اثنتين اثنتين، فعمّو راتب يحبّ شعرها معقوصًا بضفيرتين كباقتين حول وجهها. بعد سنّ السابعة عزفها على ابنة أخيه التي تكبرنا قليلاً، وكان يأخذهما إلى الملاهي والمطاعم ويشتري لهما الكاتو الفاخر والألعاب. أيّ شيء تأمر به روعة مستجاب، وفي طريق العودة كان يوصل قريبته أوّلاً ثم يأخذ روعة إلى منزله الفخم، ويؤكّد لها أنّ هذه الغرفة الخاصّة غرفتها هي، هي وحدها، ولا يسمح لأحد بالدخول إليها. كانت الغرفة مطليّة باللون الزهري، ومحاطة بعشرات العرائس وفيها شيفونيارة جواريز تصل لغاية صدره، وفي كلّ جارور الكثير من علب الهدايا الملفوفة بكافّة الأحجام والألوان. أمّا الأهمّ فكان الحصان الخشبي الهزّاز في منتصف الغرفة الخالية من الأثاث ما عداه. في المرّات الأولى، خلع عنها سروالها الداخلي وحملها لتمتطي الحصان. رفع فستانها وأعلمها بكلّ لطف بما يحبّ مشاهدته. كان كلّ ما عليها أن تهزّ الحصان وتنهز خلال احتفافها بخشب سرج الحصان من دون أن ترتفع، ولا بأس أن تفتح ساقيها وتغلقهما، كما عليها أن تلعق السوسيت خلال النهز. كان يراقبها لفترة من الوقت، ثم يختفي لبضع دقائق ويعود ليحملها، ويذكّرها بأنّ هذا سرّهما الصغير، وأنّ عليها ألاّ تبوح به لأيّ مخلوق، ثم تختار أيّ علبة تحبّها من الهدايا لأنّها فتاة شاطرة. تطوّرت الألعاب فيما بعد ببطء، فبعد النزهات التي لا تذكر روعة عددها، أنزلها عن الحصان وأوقفها ليعلّمها أمرًا هامًّا، لم تخبرنا روعة عنه وأجهشت بالبكاء. احترمنا مشاعرها، ولم نسألها أو نعاود فتح هذا الموضوع مطلقًا. في عيد ميلادها احتفل عمّو راتب بها وببروز نهديها، ولأوّل مرّة، خلال هذه السنوات، عزاها تمامًا وراح يتمتّع بمشاهدة جسدها الناحل وألمها حين يلمس صدرها الصغير الذي بالكاد ابتدأ بالنهوض. لم يختف العمّ راتب هذه المرّة، بل حملها كالريشة والتصق بها. اعتصرها صعودًا وهبوطًا، ثم أنامها على الأرض ونام معها خارجيًا. أكّدت لنا روعة أنّ العمّ راتب لم يخلع ثيابه يومًا ولم يلجها، وحافظ على عذريّتها، وكان يقول لها بأنّه سيلعب معها أكثر وبمتعة أكبر عندما تكبر ويتزوّجها وتعيش معه في هذا المنزل الكبير. ستبقى أميرته التي ربّاها طوال العمر. لكنّ العمر لم يتواطأ مع عمّو راتب فقد توقّف قلبه إثر جلطة، كذلك روعة لم تستطع يومًا تجاوز ذكرياتها الأليمة، لتزداد خنوعًا واستسلامًا للأمر الواقع. حين أعجب والداها بأسامة، العريس الثري، لم

تقو على رفض طلبهما، وتمّ كلّ شيء حسب الأصول المثبعة: العلامة، أي الشبكة، الزفاف، المنزل، الجهاز وكلّ ما إلى ذلك. وافقت على ما اختارته حماتها من ذهب كي لا تغضبها، رغم أنّها كانت تفضّل خاتمًا من الماس. وافقت على الأثاث الذي اختارته أخت عريسها الستيل الفرنسي، ورمت كلّ مجلاّت الأثاث الحديث التي سبق أن اشترتها، حتى فستان الزفاف اختارته أمّها ضيقًا عكس ما كانت تحلم به. واكبت البخل الشديد الذي تتّسم به أكثريّة العائلات البيروتيّة، لا بصمت فقط، وإنّما بجدارة ممثل كبير يتستّر على الأشياء ويتظاهر بخلافها. وما أغاظني وجيهان حقًّا محاولاتها الفاشلة لإقناعنا بأنّ الذهب أفضل، وكذلك العفش الستيل لأنّهما يحفظان قيمتهما الماديّة عبر الزمن. حتى دعوة الزفاف قلّصت فيها أعداد أصدقائها تفاديًا لأيّة مشاكل ما بين العائلتين على أعداد الحضور. وانتهى الأمر بإلغاء دعوات جميع الأصحاب. جيهان وأنا كنّا الصديقتين الشابّتين الوحيدتين المدعوّتين إلى زفاف أشبه بمأوى للعجزة. كان أسامة هذا رجلاً كارثيًا، الولد الوحيد المدلّل بين البنات. طفلٌ لا أمل في نضجه، وحين توفّي والده أظهر نبوغًا في العمل حتى حافّة الإفلاس. استقبلت روعة كلّ مصائب أسامة بصمت. كانت جيهان تجزم أنّ صمتها هو الذي جعله يتمادى في رعونته المطلقة في العمل، ومع أسرته التي أصبحت روعة وابنتها الجميلة منى. بعد كلّ مصيبة يأتي إلى المنزل لاعنًا حظّه، ويصبّ جام غضبه على روعة والأولاد، ثم يبكي كطفل ويعتذر عمّا فعل. يلقي باللوم على المستأجر الذي كذب عليه ولم يدفع له، والإيصال الذي أضاعه في جارور ما، أونسي إذا كان قد كتبه أصلاً، وحظّه العاثر الذي أدّى به إلى أن يعطي أخواته البنات كلّ العقارات والسيولة الماديّة، واكتفى بالمصلحة العقيمة والبناية، معقله الأخير. وبالطبع حال غروره بينه وبين البحث عن عمل. ماذا يقول عنه الأهل والأقارب؟ أبغد أن كان صاحب مكتب تخليص شحن محترمًا في مرفأ بيروت، يصبح أجيرًا بمعاش؟ وأيّ معاش بمؤهّلاته العلميّة المتواضعة؟ كان على روعة، بالطبع، تدبير الأمر بشهادتها الجامعيّة المرموقة لتلبّي احتياجات الأولاد، خاصّة المدرسيّة. عادت روعة لتتوظّف في مصرف محترم، ولتعمل ليل نهار. توصل الأولاد إلى المدرسة والجامعة ثم تعود من العمل لتلبية حاجات المنزل والطبخ، وسماع شكوى المكافح الأكبر أسامة وتحليلاته السياسيّة العميقة. يقف أسامة بعيدًا عند اجتماعي وجيهان وروعة، لعلّه يدرك في داخله أنّنا فسحة الأمل والسلوى اليتيمة والأخيرة لروعة، وأنّ أيّ تصرّف تافه يقوم به ستكون عواقبه وخيمة فوق رأسه. أصبحنا موقنين جميعًا أنّ روعة ستستمرّ في حياتها كما هي، فلم

نعد نُسمعها كلامًا عن زوجها الذي لا ينفع لشيء، حتى في السرير، إذ يعاني من سرعة القذف. لم تعرف النشوة يومًا وتتجسس على أخبار المتعات الجنسيّة منا. اكتفينا بأن نقوّيها ونحثها على الاستمرار. لعلّه خيارها الوحيد، والصبر ـــ على أيّة حال ـــ سمة من سمات عائلتها البيروتيّة، والتاريخ يُعيد نفسه. أصبحنا ننصت إليها وهي تدافع عنه بأعذار واهية؛ المسكين قلبه طيّب أو الحظّ يعاكسه، فنكتفي بالسؤال عن صحته عرضًا. وتركنا لها اختيار متى وكيف تخبرنا بآخر فصول رعونته. لم نعد نقوى على رؤيتها وهي تدافع عن نفسها بدفاعها عنه. كانت التبريرات تعرّيها: هشّة وحزينة.

لا تزالين فاتنة، لا تزالين جميلة، لا تزالين رشيقة.

أجمل النساء اللواتي في الخمسين من العمر، لم يزل أمامي الكثير ممّا سأنجزه

ـــــ سمّعي دروس مريم في الثقة بالنفس.

لم يبق من العمر أكثر ممّا مضى. لن أحزن أكثر ممّا حزنت، أو أفقد أكثر ممّا فقدت، ولن أفرح وأعشق وأنجز أكثر ممّا فعلت.

سأمضي ولأسعد باللحظة...

«ما لك لا تشبهين خان زاده بشيء؟ ألا تحملين شيئًا من جيناتها؟».

أحملها في قلبي ولا أشبهها، وأنا مثلها في كلّ شيء، سأرحل كما رحلت، هي القدّيسة، وسأطوي قصّتي كملايين النساء. كلٌّ منهنّ تطوي قصّتها، كلّهنّ خان زاده، رحلن دون أثر يُذكر.

«عاودي دروس العلاج النفسي، انظري لي أنا مرآتك، أنا صورتك».

ومن قال إنّ لي وجهًا واحدًا!؟

أنا المتعدّدة الوجوه، المتعدّدة الأقنعة؟

«لم يكن لخان زاده، حبيبتك وعفتك ومربّيتك، سوى وجه واحد».

نعم... نعم... خان زاده بوجه واحد... مسكينة، لم تكن تملك وجهًا آخر.. قناعًا آخر.

أعود إلى مقعدي برشاقة مصطنعة لأجد كلبي الختيار يجلس في مكاني. ما سرّ هذا المقعد الذي ينافسني عليه مؤنسي الوحيد؟ ينظر إليّ مستجديًا، لكن هيهات، لن أترك موقعي الاستراتيجي حتى له. يتنحّى فأكافئه بقطعة جبن فرنسيّة فاخرة «الكوممبير» التي تحبّها جيهان، وأمسد فروه الأبيض الكثيف، بالكثير من الغنج، علّه ينسى تنافسنا على المكان. كلبي المدلّل جعلني موضع سخرية أصدقائنا اليساريّين السابقين، بحجّة أنّه مَغلَم من معالم البرجوازية القذرة؛ ومع الأيّام تغيّر معظمهم وأصبحوا أكثر رأسماليّة من اليمينيّين الأصلاء، بينما بقي الكلب وفيًّا، لم يتغيّر، يجلس هادئًا معظم الوقت، لكنّه لا يكذب أبدًا، فهو يهزّ ذيله سعادةً بقدومي، وينبح إذا لم يرتح إلى الزائر؛ عنصر آخر في عائلتي لا يعرف الكذب أو الادّعاء. أرشف بقيّة كأسي، وأسكب من زجاجتي المتواضعة من جديد باجتراء، فما زال الوقت مبكّرًا، ولن أخاطر بالانتهاء منها، لأنّني أعرف نفسي، سيغويني النبيذ لأفتح زجاجة ـــ ولو صغيرة ـــ وهذا ما لا أودّ أن أفعله الليلة، فغدًا يوم عمل.

أفكّر في كلّ عائلتي، أنا لا أشبه خان زاده، لا، لست ملاكًا! ولا أشبه جدّتي رئيفة الصبورة المبتسمة كالنبيّ أيّوب طبعًا. ربّما أشبه العمّ أسامة، أو طليقة جدّ جدّي، صاحبة الواقعة الشهيرة لأوّل طلاق في العائلة، لا بل في بيروت، وهي السبب الرئيسي الذي قادنا إلى أن نسكن في منطقة المصيطبة، بعد أن كان الأجداد يسكنون المدينة القديمة، ويُعرفون بوصفهم حماة أحد أبواب بيروت السبعة، أي أنّهم من العيل السبع، وهذه مفخرة حتى الآن للبيارتة، حتى وإن لم يجهروا بها، تتباهى عبرها العوائل بأصلها وجذورها. كان جدّي الأكبر محافظًا متزمّتًا ـــ ككلّ الرجال في ذلك الوقت ـــ يلزم نساءه بلبس الخمار ووضع الفيشة على الوجه. كان هذا هو اللباس التقليدي المعروف في بيروت وقتها، لم تحتج هذه البديهة بطبيعة الحال إلى شرح للعروس التي اختارتها عائلته حسب الأصول. وما لم يتوقّعه جدّي الأكبر أنّ العروس، بعد فترة زمنيّة قصيرة، ضاق بها الحال، فخرجت من المنزل الكائن في قلب بيروت القديمة، حول الجامع الكبير والجامع العمري قرب سوق أياس وسوق الطويلة. صحيح أنّها كانت باللباس الشرعي، لكنّها كانت تنتعل القبقاب ذا الطقّة العالية، تفوح من حولها رائحة العطر والبخور، وتسبقها طبعًا رنّة خلخالها الفضّي. عرف جميع من في السوق من تجّار وغيرهم أنّ من تختال في الأسواق هي

عروس جدّي، واندلع الخبر كالنار في الهشيم، ليصل إلى «القبضاي» الفتوّة، العريس حامي بوّابة وراء السراي آنذاك، فطار عقله. لم يصدّق أنّها خرجت بدون إذنه أوّلاً، ناهيك عن فضيحة خروجها متعطّرة وبالقبقاب. لم تنكر السيّدة، ولم تُبد أيّ نوع من الندم، فما كان منه في لحظة الغضب تلك إلاّ أن رمى عليها يمين الطلاق بالثلاثة. تدخّل أولاد الحلال لتعود الماء إلى مجاريها ولكن عبثًا. عادت السيّدة التي كانت ـــ كما حكوا لي ـــ عاديّة الجمال وشديدة الغواية إلى بيت أهلها بطلاق بائن. المهمّ أنّ القصّة لم تنتهِ هنا، بل لعلّها قد ابتدأت، على الأقّل بالنسبة لي، فلم تكد تنهي مدّة عدّتها الشرعيّة حتى طلبها رجل من أعيان بيروت. الغريب أنّ المتقدّم كان أغنى وأوسم من جدّي، ومن عائلة بيروتيّة محترمة جدًّا. لم يصدّق والداها أنّ هذا العريس اللقطة الذي تحلم به كلّ آنسات بيروت يريد هذه المطلّقة تحديدًا، وهي لم تكد تنهي مدّة الأربعة أشهر وعشرة أيّام، أي مدّة العدّة الشرعيّة، ويترك أختها الأصغر سنًّا، العذراء الجميلة، صاحبة العينين الخضراوين. وسط دهشة الجميع، وأهلها وأهله أيضًا، أصرّ على الزواج منها. وكان له ما أراد بكلّ ممنونيّة من أهل المطلّقة، وبغصّة عميقة من أهله، ودهشة جميع الأهل والجيران والأصحاب، بل بيروت كلّها. إذ لم يكن مرحّبًا بالمطلّقة في ذلك الوقت، لكنّ هذه المطلّقة هي التي قضّت مضجعه ليصل إليها، منذ مرّت بجواره في السوق في ذلك اليوم الشهير، فسلبت لبّه برائحة البخور الهندي الثقيل الذي يهفّ من العباءة التي التحفت بها. ظلّ يراقبها وهي تختال بمشيتها المغناجة، منصتًا إلى وقع القبقاب والخلخال اللذين بقيا يرنّان في خياله ويغرّدان في حلمه كلّ ليلة. وفقد صوابه حين رأى تقاسيم مؤخّرتها المرتفعة التي حرصت، وهي تشدّ عباءتها على جسدها، على أن تبرزها. خاض حروبه مع مجتمعه، بصمت وجدارة وإصرار، وتزوّجها في النهاية، وبقي عاشقًا مخلصًا لها حتى يوم وفاته. تزوّج جدّي بعدها من فتاة عاديّة. لا أحد يذكرها بخير أو بشرّ. توجّه بعد الصدمة إلى مدينة طرابلس، عاصمة الشمال، ليتزوّج من واحدة من بناتِ أفضل عوائلها، وبالطبع أكثرها تزمّتًا والتزامًا دينيًّا. ولم تفكّر العروس الجديدة أصلاً بالخروج، وارتضت بما أراده الجدّ الأكبر بدون مناقشة. رأى الجدّ أن ينتقل إلى داخل بيروت، بعيدًا عن الصخب وأصداء الفضيحة السابقة، واستقرّ ـــ ونحن من بعده ـــ في منطقة المصيطبة منذ ذلك الوقت.

في كلّ سهرة نبيذ لا أعدّ سجائري، ولكنّني ضمنيًا متأكّدة من الكمّ الهائل الذي أتعاطاه في وقت قياسي، لينعقد مسرح الدخان فوق رأسي، وأستيقظ كالعادة في اليوم التالي وأنا أشعر باشمئزاز من رائحة شعري وملابسي، وما علق بأظافر يدي اليمنى من اصفرار. يداي العاديّتان لا تشبهان يديّ جدّتي رئيفة، عازفة البيانو، بل أوّل وأمهر العازفات في أوائل القرن الماضي. جدّتي ابنة الحسب والنسب، والدها الحاجّ عبد الله، من أكبر تجّار بيروت وأغنيائها المحترمين، لم يبخل على عائلته بأيّ من رفاهيّات العيش، ولم يبخل خاصّة على ابنته البكر رئيفة. أصرّ على تعليمها في أفضل المدارس، وأحضر إليها مدرّسة بيانو، بعد أن اشترى لها البيانو الهوفمن من جارهم القنصل البريطاني. ارتادت رئيفة أهمّ مدرسة للبنات في ذلك الزمن؛ تقلّها عربة بحصانين، وازدانت بمشطين مرصّعين بالماس. فرئيفة هي الذكيّة الجميلة المطيعة، وزينة أخواتها الأربع وأخويها. أتت الحرب العالميّة الأولى بالويلات على الحاجّ عبد الله وعائلته، فباخرة المؤن الغذائيّة التي اشترى حمولتها غرقت قبالة مرفأ بيروت، كما أصاب قطيعه من البغال مرض عضال، وهي التي كانت تؤمّن نقل البضائع من المرفأ للتجّار، نفقت كلّها. ثم أدّت الحرب والمجاعة إلى تدهور أحوال اللبنانيّين جميعًا. وخلال عام من انتهاء الحرب اضطرّ الحاجّ عبد الله لإشهار إفلاسه. وبعد أن كانت أهمّ العوائل البيروتيّة تخاف من أن تتقدّم لخطبة بناته، وجد نفسه خائفًا عليهنّ ممّا سيأتي. لم يجد لرئيفة أفضل من ابن أخته اليتيم، أي جدّي. صحيح أنّ رزقه قليل ويعول عائلته الكبيرة، لكنّه متديّن ودمث الأخلاق. لم تصدّق أخت الحاجّ عبد الله نفسها حين فهمت هذا التلميح وبوادر التشجيع من وجيه العائلة. كانت فرحتها لا توصف حين استقبلت رئيفة مع البيانو ومرآة وقنديلين في منزلهم المتواضع. كان هذا كلّ ما قد نجا من المأساة، وأقصى ما استطاع الحاجّ أن يهبه بعد إفلاسه، وبعد أن أعطت رئيفة والدها مشطيها وكلّ مصاغها، ليبيعها بكلّ رحابة صدر. استقبلها جدّي وعائلته الكبيرة، أخواته العوانس الثلاث: خان زاده وصبحيّة وفاطمة، بالإضافة إلى شقيقة العمّ أسامة وأمّه ـــ عمّتها ـــ بالترحاب. كانوا فقراء العائلة الذين لا يزورون منزل الحاجّ إلاّ في المناسبات والأعياد تعفّفًا. لم تفارق الابتسامة وجه رئيفة، بالرّغم من الإنجاب المتكرّر والعمل المنزلي المضني، وضيق الحال. عاملها جدّي بكلّ الحبّ والرقّة والاحترام، تمامًا كما توقّع الحاجّ عبد الله. كان برغم

فقره حالمًا ومحبًا للعلم. لم يكن من تجار الخضار الأقوياء في الحسبة الكائنة في وسط المدينة القديمة، نزولاً من خان البيض وسوق السمك. كان يساهم في تعليم فقراء المسلمين في القرى مع جمعية المقاصد الخيرية. شخصيته الخجولة ولطفه واستغراقه في القراءه جعلته لقمة سائغة للتجار الآخرين، فاستغلّ شريكه هذا الضعف وغيابه المتكرر، ولم يعطه إلاّ النزر اليسير ليسدّ رمق عائلته. جدي الراضي بقسمة الزمن، بوداعة وجهه الصبوح المبتسم، أقرأ شخصيته من الصورة الموجودة في جميع بيوت الأعمام والعمات، وطبعًا بيتنا. الطربوش الأحمر العثملّي، وعينان تفيضان وداعة وحزنًا، حتى انحناءة رأسه الخفيفة في الصورة تنمّ عن الأعباء التي ينوء بها. أمّا جدتي رئيفة فكانت تقاوم كآبتها باللجوء إلى البيانو، أو تدخين نارجيلة تنباك عجمي في الحديقة، بظلّ شجرة الفتنة والياسمينة، حيث تستطيع أن تنظر إلى أرانبها الولودة، والابتسامة لا تفارق محيّاها. كان بيت جدي بيت الضيافة والكرم والفرح، برغم ضيق ذات اليد. ترتفع فيه دائمًا أصوات عزف البيانو، وتهرول خان زاده وصبحيّة للاهتمام بالضيف، ولو بفنجان قهوة وفنجان شاي. البيت القديم ذو القرميد الأحمر والدار الفسيحة التي تتفرّع منها جميع غرف البيت؛ من غرفة المسافرين، وغرف النوم والمطبخ، وحديقة تحيط بالدار، فيها شجرة أكي دنيا وياسمينة عجوزة تورف بظلالها على جلسة جدتي المفضّلة وأصص نباتات أسماؤها متعارف عليها، تبعث على الضحك وهي تصف شكل النبتة، كحلق الستّ ولسان الحماة وفم السمكة، وشجرة فتنة تسعدها حين تزهر، فتزيّن صحن نارجيلتها بأزهارها البيضاء والصفراء. كان لجدتي طقوسها في تزيين صينية القهوة من ركوة وفناجين وقماشة بيضاء مفرّغة ومطرّزة بيد خان زاده، تزخرفها رئيفة بأزهار منمنمة صغيرة حسب الموسم؛ ياسمين أو زهر الليمون، أو فلّ من شجيرات الأحواض الصغيرة المتناثرة، على جوانب السور. كان لرئيفة ولع آخر، هو قراءة الروايات، ورافقتها هذه الهواية حتى آخر أيّام حياتها. وما زلت أذكر كيف كنت أسرق منها روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدّوس الصادرة عن دار القلم، بورقها الأصفر المهلهل، والجوانب المقصوصة بمقطع عجوز، والطباعة التي تتغيّر ألوان حبرها وكثافته ما بين ملزمة وأخرى. وما كان يلفت نظري كثيرًا هو أغلفة الروايات المرسومة كلوحات إعلانات أفلام السينما، وما زلت أعجب بها حتى الآن، وخاصّة غلاف رواية «النظّارة

السوداء» الذي ألهب خيالي قبل أن أقرأ الرواية. وطالما نصحتني جدتي رئيفة بقراءة يوسف إدريس وجبران خليل جبران، وكانت تغضّ النظر عن تسلّلي إلى غرفة نومها دون استئذانها وسلب رواياتها التي تحفظها إلى جوارها، ثم أرجعها. وبتواطؤ ما، وبدون مصارحة أو مناقشة بيننا، كان عليّ أن أقرأ كذلك من المكتبة الموجودة في غرفة الجلوس، فتدفع لي بكتاب «الأيّام» لطه حسين، وتجبرني على قراءة العقّاد والمنفلوطي الذي كرهته. كان لجدّي شغف آخر هو زراعة أزهار الزنبق أو قضبان الزنبق، بالرّغم من صعوبة زراعته لحساسيّته وسرعة موت بصلاته. في أواخر الأربعينيّات من القرن الماضي، اكتظّت الحديقة والأحواض بالزنبق حتى فاضت رائحته على المنطقة، وهو فأل سيّئ ونذير شؤم عند البيارتة، اعتقاد يؤمنون به منذ أجيال. حذّره الجيران والأقارب، لكنّ جدّي لم ينصت، فقد كان مولعًا بزنابقه، ويفخر بتغلّبه على صعوبة زرعه. في موسم الزنبق التالي لم يزهر ولا قضيب واحد وماتت جميع بصيلات أزهاره.

في ذاك العام نفسه ماتَ جدّي.

آخذ رشفة طويلة من كأسي المملوءة، حين أكتشف فجأة أنّ ليس لديّ في منزلي بسوق الغرب أيّ صورة لجدّتي رئيفة، أو للعمّ أسامة أو لعمّاتي. ليس لديّ كذلك بالطبع صورة لجدّي الذي لم أعرفه وعرفه والدي بالكاد. أمّا خان زاده فلها صور على الحائط وفي قلبي. قرّرت أن أحضر صورًا لهم جميعًا، وبالأخصّ العمّ أسامة. سأحاول جاهدة أن أبحث في أرشيف من بقين على قيد الحياة من عمّاتي علّي أجد صورة له، إمّا في أوّل شبابه أو في آخر أيّامه، بعد عودته من اختفائه المشهور لمدّة تقارب الخمسين عامًا. عاش العمّ أسامة حياته بالطول والعرض، مغرّدًا خارج السرب. ربّاه جدّي صغيرًا يتيمًا، وكان له أبًا أكثر من كونه أخًا. عمّي أيقونة الحرّيّة والتمرّد على التقاليد والموروثات ـــ كما أراه ـــ ووصمة عار تاريخ العائلة التي تمنّت أن يختفي ويطويه الزمن. كان أسامة، منذ طفولته، وسيمًا جدًّا وذكيًّا وسريع البديهة، بالإضافة إلى خفّة دمه وارتجاله الشعر؛ قبلة الأنظار ليس للعائلة وحسب بل لكلّ من يعرفه من غريب وقريب. بذل جدّي ـــ برغم حالته المادّيّة المتواضعة ـــ كلّ جهده ليلحقه بمدرسة اللاييك، ليحصل على أفضل تعليم، وليكون مفخرة العائلة. وقد كان كذلك حتى وصل إلى الصفّ الأخير في المدرسة حيث رافق «صحبة السوء» كما كان يسمّيهم والدي وبقيّة العائلة، عندما يأتي ذكره نادرًا ويترحّمون عليه. لا يتذكّر والدي ـــ الذي كان طفلاً حينها ـــ الحادثة الأخيرة إلاّ طيفًا، كان العمّ أسامة قد بدأ العودة متأخّرًا ومترنّحًا، إلى ذلك المنزل الكائن في المصيطبة، والمواجه لجامع الرمل الصغير، تفوح منه روائح غريبة وغير مألوفة لأنوف أخواته العوانس الثلاث، وأخيه وزوجته وأطفاله. أحسّت أخته فاطمة بالتغيّر الجذري في سلوك الشيطان الصغير الجميل، فهو يأتي متأخّرًا، كي لا يراه أحد، وينام بثيابه في الكثير من الأحيان، ويطالب بالمال بحرقة، متجاوزًا حدود اللياقة إلى قلّة الأدب، وأحيانًا يكون معه الكثير من المال المخبأ في جيوبه. لا يَخفى شيءٌ في مدينة بيروت الصغيرة وأزقّتها. وعليه، نبه الثرثارون جدّي إلى أنّ أسامة لا يذهب إلى المدرسة، بل يقضي يومه يلعب الثلاث ورقات ويشرب الخمر في المقاهي، وأماكن وسط المدينة المشبوهة. لم يصدّق جدّي المسكين الحقيقة؛ فهو الذي علّمه الصلاة حاضرًا في الجامع وحفّظه القرآن، واقتطع من قوت العائلة ليدفع به إلى إحدى أهمّ مدارس لبنان ليكون ذا شأن في المجتمع. كم من مرّة تآزرت العائلة وحرمت نفسها لشراء بذلة أو حذاء جديد لأسامة، كي يواكب أصدقاءه في المدرسة، وهم من أغنى العيل وأهمّها. صدّق جدّي أخاه الصغير أسامة، وتستّرت عليه أختاه، بينما

الوحيدة التي عادته علنًا أخته فاطمة. فاطمة ذات العينين الزرقاوين التي لم تقنع بمصيرها كعانس، لم تكن لتغفر لهذا الشيطان، بدهائه واحتياله واختياره طريق الضياع، أن يشوّه سمعتهم. حاول أسامة أن يقنع الجميع أنّ كلّ هذا الكلام من قبيل الحسد والغيرة، وأنّه يمضي معظم وقته بالدرس عند أصدقائه، لأنّه لا يستطيع ذلك في المنزل المكتظّ بالأطفال، بالإضافة إلى وجود أخواته الثلاث المحجّبات. لم تمض أيّام حتى عاد العمّ أسامة في إحدى الليالي، سكران يطالب جدّي بنقود، وطبعًا لم يقو جدّي على مواجهة الموقف، فهرب إلى غرفته فتدخّلت فاطمة وطلبت من ابن أخيها الكبير، أي عمّي عبد الكريم، الخروج لطرد العمّ أسامة دون رجعة، لأنّه غير مرغوب به في المنزل، والعائلة كلّها تتبرّأ منه، ولا يشرّف أهلها أن يكون أخاهم أو أن يقيم معهم؛ فليس في هذه العائلة «خمرجيّون». خرج الطفل ونقل الكلام حرفيًا، فما كان من أسامة إلاّ أن فتح الخزنة واستولى على كلّ محتوياتها، وخرج من ذلك المنزل لمدّة تقارب الخمسين عامًا. لم يعرف أحد يومًا هل اشتاقت له عمّتي فاطمة يومًا أم حقدت عليه؟ هل عرفت يومًا أنّ عنوستها سببها حظّ أختها الكبيرة إحسان، أم سمعة أسامة؟ على الأرجح كانت متأكّدة أنّ عمرها وعمر أخواتها حين رحل أسامة كان قد تجاوز سنّ الزواج، وأنّ المشكلة الأساسيّة هي في صهرها الكبير الوحيد رشيد، فمن في بيروت يجرؤ على طلب يدها أو يد إحدى أخواتها، واضعًا هذه اليد بيد الحاج رشيد ذي المنزل المرسومة أسقفه وجدرانه بماء الذهب. صهرها الغني الكريم العجوز الذي يكبر أختها، أجمل جميلات بيروت آنذاك، بما يزيد عن أربعين عامًا. لم يكن من الممكن أن يتطاول متوسّطو الحال لخطبتهنّ، أو أن يجرؤوا على التقدّم فزعًا من المقارنة بالصهر، صاحب أوّل سيّارة كاديلاك عرفتها بيروت. لم تتلفّظ العمّة فاطمة يومًا باسم أسامة، أو ذكرته ولو اعتراضيًا بجملة؛ ولغاية وفاتها لم تسمح لأحد بالتفوّه بكلمة، أو حتى ذكر خبر يرد فيه اسم أسامة. أذكرها ضبابيًا في طفولتي، وليس محفوزًا منها في ذاكرتي سوى هاتين العينين، اللتين، بالرّغم من جمال لونهما الفيروزي الصلب، كنت أخاف منهما وأشعر أنّهما من زجاج. كنت أنفر منها لقساوتها معي، وتفضيلها السافر لبنت عمّي وابنة عمّتي، فهي لا تتوانى عن تدليع الآخرين أمام نظري، وتنهرني إذا حاولت الاقتراب منها، وتصرخ بي اذهبي لعند أختي، اذهبي لعمّتك خان زاده. تعانقني خان زاده وتقبّلني، ثم تضع رأسي في حضنها وتمشّط شعري، وتقول لي ما ظلّت تقوله لي حتى وفاتها، حين أصبحت في الثلاثين، وهي تمشّط شعري بأصابع يديها المتكلّستين: شعرك مجعّد وأنت

جميلة مثل أختي إحسان، وذكيّة مثل أخي أسامة، هل تعرفين أنّنا كنّا، كي نستطيع أن نمشط شعر إحسان نستعمل صابونة زيت الزيتون؟ لا تفكّري في شيء يا عمّتي، فقط اطلبي من الربّ العفو والعافية. وتتمتم في كلّ مرّة الدعوة نفسها: ربّي اجعل حظّها أفضل من إحسان وأسامة.

أسامة الذي خرج في ذلك الليل الممطر من المنزل ظلّ في أرواحهم جميعًا، كلّ العائلة حقدت عليه إلاّ خان زاده. لم يغفروا له قطّ. إنّه لم يعبأ بما عانوه، بل أيضًا سرق غلّة دكّان سوق الخضار. لم يعبأ بكفاح جدّي كي يؤمّن لهم التعليم والحدّ الأدنى من ضرورات الحياة. لكن وجهة نظر العمّ أسامة كانت مخالفة تمامًا؛ فمنذ خروجه من منزل العائلة عاش حياة الحرّيّة كما أرادها تمامًا، لا طقوس دينيّة ولا ارتباط بفكرة العيب والحرام، متحرّرًا من الثقل الاجتماعي الذي يعيشه قاطنو بيروت. تحرّر من مراقبة الجيران، وتمكّن من شرب الخمر، ورؤية النساء بلا خمارهنّ الأسود. كانت، هذه هي الحياة التي تلائمه تمامًا. في السنوات الأولى من رحيله درّس في قرى البقاع اللبنانيّة، وكان لا يكاد ينهي عامه التدريسي حتى يغادر إلى قرية أخرى، بعد أن يكون قد استطاع نيل من أعجبته من نساء القرية. نادرًا ما كانت تفلت منه أنثى، فإذا لم يجذبها بشكله الوسيم، وصل إلى هدفه عن طريق الشعر وحلو الكلام. هو الساحر الذي يعشق الخيل ويتنقّل ما بين القرى على ظهر فرسه السوداء، لم تسلم منه حتى راهبة أعجب بها يومًا. زوجات لشخصيّات معروفة، وجميلات، استطاع أن يأخذ منهنّ برضاهنّ ما أراد، ثم رحل قبل أن يعلق وتتشوّه صورته الجميلة بمشاكل لا قدرة له على حلّها، مثل الاستقرار أو أيّ نوع آخر من التنازل عن حرّيّته المطلقة. يختار الرحيل ليخوض المزيد من المغامرات. وبعد ما يزيد عن ثلاثين عامًا من الترحال في جبال لبنان وسهل البقاع، عاد العمّ أسامة إلى المدينة التي طالما أحبّها، لكنّه لم يتجرّأ على أن يقترب من منطقة المصيطبة، بل سكن في مكان يستطيع أن يعيش فيه حياته كما يريد.

أرتشف جرعة نبيذ كبيرة لأتذكّر: من قال إنّ عمّي أسامة اختفى كلّ هذه المدّة من غير أن يعرف عنه أحد أيّ خبر؟

أنا الطفلة متأكّدة أنّني أعرفه جيدًا، قبل أن أقابله، وأنا شابّة في بنايتنا القائمة في المصيطبة، بعد أن تحوّلت الدار القديمة إلى مبنى كبير يضمّ العائلة التي ابتدأت بالتزايد، إذ كان يستحيل على البيت القديم استيعاب الزيجات والأعضاء الجدد. ما زلت أذكر رحلة الوصول المؤلمة إلى غرفة العمّ أسامة الوضيعة، ونحن نجتاز شارع الزيتونة أنا وعمّتي خان زاده. كانت خان زاده تأخذني أحيانًا معها سرًّا لزيارة أخيها، أو بالأحرى لتتفقّد حاله، ولطالما عانت من التحرّش بها عبر الشتائم والبصق من ساكنات حيّ الدعارة المعروف الذي كان يسكنه، فتمسك يدي بشدّة، وتمشي بخطوات سريعة، تحيط بها القهقهات والغمزات والتعليقات اللاذعة، بها وهي في حجابها الوقور. ما إن تصل إلى ما يشبه البيت حتى تبدأ بالتنظيف بأسرع ما يمكنها، فتجلي الأطباق العفنة المتبقّية منذ مدّة طويلة، وتمسح الأرض، وتغسل الألبسة المتناثرة في كافّة أنحاء الغرفة وتنشرها، ثم ترقع كلسات أخيها أو تخيط أزرار قمصانه. لكنّني في الحقيقة لا أتذكّر أنّه كان هناك أيّ حوار بين خان زاده والعمّ أسامة. ما إن يفتح لها الباب حتى يختفي، ثم يعود قبل موعد مغادرتها التقريبي، فإن وجدها قبّل جبينها ويديها، بينما تتساقط دموعها ككلّ مرّة، لتعاود الرحلة المذلّة عبر شارع الزيتونة. ودون أن تحذّرني عمّتي، لم أرو لأحد عن هذه الزيارات القليلة التي أخذتني بها وكأنّها سرّنا الصغير. نسيت الأمر كلّيًا إلى حين تعرّفي بعمّ والدي أسامة في منزلنا، ولكنّني صمتُّ ولم أنظر حتى إلى عيني خان زاده يومها. خلال فترة سكنه في الزيتونه، اكتسب العمّ أسامة قوّته من التجارة المتواضعة بالبطاريات والويسكي المغشوش، التي كان ينفق منها على ملذّاته التي لم يكفّ عن انغماسه فيها مع مرور الزمن، وفي نهاية الأسبوع ـــ يوم السبت ـــ كان العمّ أسامة يتأنّق ليذهب إلى سباق الخيل في منطقة المتحف، ويصرف ما تبقّى، ويستدين للأسبوع الذي بعده. أحبّ الجميع العمّ أسامة، ووقعوا تحت تأثير سحره، حتى الداعرات من جاراته كنّ يدلّلنه، وكان لا يبخل عليهنّ بالغزل اللطيف وأبيات من الشعر، يطري بها جمالهنّ ويقبّل أيديهنّ كالأميرات حين يلتقي بإحداهنّ على الدرج. وكنّ بالتالي ينظّفن منزله، من وقت إلى آخر، ويشربن معه القهوة، ويشكين له من قسوة الزمن. أتت الحرب الأهليّة عام ١٩٧٥ فتمّ تهجير العمّ أسامة ـــ مقهورًا ـــ من البيئة التي يحبّها إلى منزل آخر في منطقة تماس أخرى، هي رأس النبع. لم يكن وضعه المادّي يسمح له إلاّ بمكان خطر كهذا، كلّ ما فيه أنّه رخيص. مرّت سنوات وخان زاده تلحقه وترعاه بصمت، أثناء ذلك توفّيت أخته فاطمة دون أن تذكر

حتى اسمه أو تسامحه، وهي على سرير الموت. نال الزمن من العمّ أسامة، وهو يشارف على السبعين من العمر، فابتدأ جسده انتقامه من سهر الليالي والتدخين المفرط والسكر المستمرّ، وتدهورت صحته. في السبعين من العمر حنّ العمّ أسامة إلى المصيطبة. لم يستطع والدي وأعمامي تجاهل أمر عمّهم المختفي الذي ابتدأ بالظهور في المنطقة، وبتعريف نفسه لكلّ من يلقاه، من بقّال أو بائع خضار أو جزّار، بأنّه عمّ الشباب ممّا سبّب إحراجًا، بالأخصّ لعمّي الكبير عبد الكريم، وبدرجة أقّل لوالدي. أمّا عمّي الصغير أبو رامي فقد شعر بالرضا للتعرّف على العمّ الذي لم يره أبدًا. استطاعت عمّتهم خان زاده، حينًا بالكثير من الوسائط وحلو الكلام وبالدموع وبالترجّي، وحينًا آخر بإقناعهم للسماح له بالعودة إلى حضن العائلة. فتح له أبي، بكثير من الحبّ والمسامحة، باب المنزل، كذلك عمّي أبو رامي، بينما رضي أخوهم الأكبر عبد الكريم على مضض، واضعًا في حسابه الأصول والتقاليد البيروتيّة وكلام الناس. لم ينس عمّي اليتم والمرارة والفقر حين توفّي والدهم، بينما عمّهم منغمس في مجونه وأنانيّته، لكنّ أخلاقه والأعراف التي تربّى عليها منعته من طرده. رجع أسامة للسكن في منزل أختيه اللتين ما تزالان على قيد الحياة في مبنى العائلة حيث يسكن جميع أولاد أخيه، بترحيب من أخته خان زاده، وحياد كبير من أخته الصغرى صبحيّة. عاد بيروتيًا بلهجته وعوائده كأنّه لم يغادر قطّ. يتدلّل على والدتي بطلب المأكولات التي يحبّ، وطبعًا النارجيلة التي كانت نادرًا ما تفارقه. ولا يخلو الأمر من بضعة أبيات شعر هجاء مقذع لزوج عمّتي الذي كان يكرهه. يرتجل أحيانًا، ويستعين بالمتنبّي في أوقات أخرى حسب المناسبة. توتّرت الأوضاع في عدّة مناسبات بينه وبين أبي، ففي إحدى المرّات شاهد أبي بالصدفة أمّي، وهي تلفّ ضمّة نعناع بجريدة سباق الخيل، فجنّ جنونه، وسأل والدتي من أين أتت بهذه الجريدة، أجابته أمّي بكلّ براءة أنّها من جرائد العمّ أسامة التي يخبّئها، فثار على عمّه ثورة عارمة وسبّه. وفي مرّة أخرى اكتشفوا عدّة صناديق كحول عند جارنا النجّار من تجارته القديمة، كان قد خبّأها للزمن، إذا ضنّ عليه أبناء أخيه بالمصروف، لأنّه لا يحبّ أن يطلب شيئًا من أحد، لكنّ المياه كانت تعود إلى مجاريها بذكائه ولباقته، فيعتذر بلطف شديد، ويذكّرهم بأنّه قد أصبح عجوزًا جدًّا، وهذا ما اعتاد عليه لسنوات، ولم يكن يدرك أنّ هذا الأمر أو ذاك سيزعجهم، ويعد بعدم تكرار ما حدث. ظلّ العمّ أسامة على كرمه القديم يبدّد مصروفه على ترويقة الكنافة التي يعشقها مَن حوله يوميًا، وعلى أفخم أنواع المكسّرات بعد الظهر ومساء، حيث يجلس

ليدخّن نارجيلته العجميّة، شاتمًا الفُرس، معترفًا أنّ لا غنى عن سجّادهم وتبغهم الفاخر. ويتابع التلفزيون خاصّة أفلام الكاوبوي التي كان من المغرمين بها. وبرغم كلّ شيء، كان الطفل المدلّل لوالدتي التي لا ترفض له طلبًا، وتبقي كانون النار معبأ لنارجيلته المشتعلة طوال الوقت. وكان يبقى في منزلنا متعلّقًا بأذيال أمّي كطفل صغير، يأتمنها على أسرار ماضيه، يحكي لها ويضحكها حين يجلس معها في المطبخ، يسلّيها وهي تطبخ، ويقترح أطباق اليوم التالي، وهي تضع له الجمر وتغيّر له رأس النارجيلة قبل أن يثور غضبه حين تنتهي. خزف العمّ أسامة في آخر أيّامه، غافل أمّي مرّة وهي خارج المنزل ليعرف ماذا تطبخ، ففتح طنجرة الضغط ليحترق وجهه وتلتصق الخضروات بسقف المطبخ. وأصبح لا يفرّق بين الليرة والمئة ليرة. ازدادت حالته سوءًا، فخرج ذات مرّة من المنزل بالقميص والجاكيت والكرافات والحذاء، ناسيًا البنطال، فما كان من الجيران إلاّ أن أعادوه على الفور. وأثناء القذائف المتساقطة على المنطقة، كان يطلب من أمّي الكاتو فتحضّر له «الصفوف» وهو نوع من الحلوى البيروتيّة كي ترضيه كطفل صغير قبل أن يموت عام ١٩٨٦. وعندما توفّي العمّ أسامة ظنّ الناس أنّ والدتي هي ابنته من شدّة حزنها وتأثّرها؛ وكعادتها في الأتراح أبت إلاّ أن يخرج نعشه من بناية العائلة بكلّ الطقوس المتعارف عليها. طقوس الموت البيروتيّة المتوارثة، لحفظ ماء الوجه من جهة، ولحبّها الشديد للعمّ أسامة من جهة أخرى. لم تسمح أن يغسله عمّي أبو رامي في مستشفى المقاصد، وأصرّت أن يعود إلى منزله، منزل العائلة الكريمة، ولم تسمح أن يكون العزاء في إحدى الخليّات، لأنّ البيوت للأتراح والأفراح. اطمأنّت أمّي لكافّة التفاصيل أكثر من أيّ شخص آخر من عائلته، وراقبتها بدقّة، بدءًا من إعطاء المغسّلين زجاجة ماء زمزم، وانتهاء بالاطمئنان إلى أنّ الكفن من أفضل الأنواع. ولحقت بعمّي أبو رامي ليضع على النعش الصرما التركيّة القديمة المتوارثة، تلك القطعة المربّعة من المخمل المطرّز بخيوط الذهب، المتوارثة في عائلتنا، أو ذات اللون البنفسجي الذي بُهت لِقِدَمِه، والمطرّزة على شكل زهرات متّصلة ومنفصلة على الزوايا الأربع، والتي تدلّ على مستوى العائلة البيروتيّة ومدى أصالتها. تمّ أيضًا وضع الطربوش العثماني الأحمر لمعرفة أنّ المتوفّى ذكر وليس أنثى. راقبت أمّي النعش من شرفة منزلنا وهي تبكي بحرقة، وهم يصلّون على جثمانه في الجامع المقابل، ووري الثرى في جبّانة الباشورة، مثله مثل أيّ فرد من عائلتنا، وكواحد من أعيان بيروت.

تتحسّر أمّي منذ فترة على أنّها لم تفعل ما تفعله بعض العائلات الكبيرة في بيروت، وتشتري كفنها من السعوديّة، لكنّها أخبرتني بإمكانيّة شراء الكفن الدمشقي الفاخر من مؤسّسة المقاصد لدفن الموتى، وهي المؤسّسة الوحيدة المسؤولة عن خدمات موت أفراد العائلة. أمّي، مثلها مثل جميع البيارتة، توصينا بما يجب أن نفعله بعد موتها. عادةً ما نقمعها كلّنا، ونخبرها بأنّنا نكره هذا الحديث حتى ولو كان على سبيل المزاح. حتى بعد الموت، يحرص السنّة على برستيجهم. أكثرهم حرصًا وبخلاً يضطرّ لدفع ثمنٍ باهظ لخدمات الدرجة الأولى حتى لا تلوكه الألسنة. أمّي ـــ بالرّغم من حزنها الشديد على الميّت ـــ تهتمّ بكلّ التفاصيل، و«تعمل للمتوفّى قيمته» كما تقول. تنبّه أمّي عمّي إلى أن يحرص على الصرما، وألاّ ينساها في المقبرة، فهم السابقون ونحن اللاحقون. ربّما في اللاّشعور تفكّر بضرورة إعادة الصرما من أجلها أيضًا، وتنسّق مع عمّي الكبير عبد الكريم أمور العزاء؛ خاصّة ما يتعلّق بالطعام، الذي اعتاد البيارتة أن يطلبوه من مطعم معيّن في الأيّام الثلاثة الأولى من العزاء، بالإضافة للأسبوع. ترمي أمّي يمينًا معظّمًا على الأهل والأصدقاء أن يأكلوا من سفرة الميّت؛ وبالرّغم من حنق معظم البيارتة على غلاء السفر الممدودة، لم أعرف عائلة واحدة امتنعت عنها وقرنت القول بالفعل. بعد أن ينفضّ الجمع وتفرغ التفاصيل، يغزو أمّي الحزن.

عمّي الصغير «أبو رامي» مختصّ باستخراج وثيقة الوفاة فورًا من الطبيب الشرعي، وفتح مقبرة العائلة، كذلك طبع ورقة النعوة، وهي من اختصاص مطبعة واحدة تقع مقابل جنانة الباشورة، بالإضافة إلى الاتّفاق مع الشيوخ قرّاء القرآن، وشراء الكفن، وما إلى ذلك. كثرت أشغاله في السنوات الثلاث الأخيرة. ماتت صبحيّة وجدّتي رئيفة، وهذا هو العمّ أسامة يموت بدوره. كلّ المشايخ الذين يأتون للقراءة عميان. فعندما يولد طفل أعمى في بيروت يكون أهله أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إمّا تعليمه تقشيش كراسي السبيدران، أي الخيزران القديمة، أو تحفيظه القرآن ليكسب عيشه. تراهم وهم يهزّون رؤوسهم وأكتافهم إلى الأمام والوراء، منشدين بأصوات لا تخلو في أغلبها من نشاز. قديمًا كان أغلب البيارتة يشعرون بالعار إذا كان لديهم طفل معوّق ومصاب بمتلازمة سندروم، فيخفونه عن الأنظار، خشية أن يتردّد طلاّب الزواج في مصاهرة مثل تلك العائلة خوفًا على النسل، وبالتالي يبقى معظم بنات هذا المنزل عوانس يخدمن إخوتهنّ. يختلف سكّان منطقة رأس بيروت وعين المريسة في هذا الأمر، حيث يعاني عدد منهم من أمراض متوارثة، لأنّهم لا يتزاوجون

إلاّ في ما بينهم خوفًا على ممتلكات العائلة من الغرباء. ويُروى عن أهالي مناطق بيروت المواجهة للبحر روايات مضحكة، فأيّام احتلال الدولة العثمانيّة شكّل أهالي عين المريسة وفدًا لزيارة الوالي، وكان الهدف من الزيارة الشكوى على الشمس، فهي تشرق في وجوههم حين يخرجون إلى العمل صباحًا، وتغرب في بحر بيروت فتضايقهم في عودتهم. قهقه الوالي حين تلقّى الشكوى، وشعر أهالي عين المريسة، أو «دارة المريسة» كما كانت تُسمّى سابقًا، بالإهانة. يُروى أيضًا عن سكّان رأس بيروت أنّهم كانوا يعتقدون أنّ ثروة أكبر عائلاتهم أتت من الشابّ الذي نزل إلى البحر حزينًا، ورأى ـــ بالصدفة ـــ حوريّة من حوريّات البحر، رائعة الجمال، فاشتعل بينهما الغرام. أغدقت عليه عروس البحر جرارًا من الذهب حملها إلى منزله، في مقابل ألاّ يكلّم أيّة امرأة أو يتزوّج، وكان لها ما أرادت. استثمر الذهب بالتجارة وكسب، واشترى الكثير من الأراضي. وحتى يومنا هذا لم يزل البعض يعتقد أنّ مصدر أموال هذه العائلة العريقة هو ذهب عروس البحر.

لهذه الكأس مذاقٌ حلو يشعرني بالخفّة. ليس لمعظم الناس حظّ العمّ أسامة. عاش ملكًا ومات ملكًا، عكس ما يُقال إنّ المتزوّج يعيش كلبًا ويموت ملكًا، بينما العازب من أمثالي يعيش ملكًا ويموت كلبًا. أنا أعرف الكثير من المتزوّجين الذين عاشو كلابًا وماتوا كلابًا أيضًا. مثلاً، إقبال ابنة جدّي الأكبر عبد الله، وأخت جدّتي رئيفة لم يكن لها حظّ أختها، كانت الأخت الثالثة، وكانت جميلة ولطيفة أيضًا، تزوّجت أحد أبناء الأسر المعروفة في بيروت، لكنّ الرياح أتت بما لا تشتهي السفن. عانت الأمرّين مع زوجها الشرس وعائلته البخيلة، لم تتخيّل إقبال يومًا أنّ أخت زوجها ستضع لها ملعقة أرزّ واحدة في صحنها، وستراقبها وهي تطهو الطعام، خوفًا من أن تأكل من ورائها، أو أن تبذّر وهي تقشّر الخضار مثلاً. عدوانيّة زوجها وأسرته تجاهها ألزمتها الصمت على معايرتهم لها بزواجها من ابن الحسب والنسب، الذي لم يكن طامعًا بمال، فكانوا يذكّرونها دومًا بأنّ زوجها ابن أصل لأنّه تزوّجها وستر عليها، ولم يكن طامعًا في مال الحاجّ عبد الله. تحمّلت إقبال ألوانًا من المهانة، وعقد الدونيّة التي وصلت إلى ضرب زوجها لها، فقد كانت العودة إلى منزل الحاجّ عبد الله شبه مستحيلة. وبعد وفاته لم يعد لها أمل بالخروج من هذا الجحيم؛ لكنّ إقبال لم تحتمل طويلاً، فماتت في ريعان شبابها. كانت الجدّة رئيفة تقول إنّها ماتت كمدًا... الغريب أنّ زوجها تغيّر بعد وفاتها، فكان يبكيها يوميًّا، ويترحّم عليها وعلى مزاياها التي لا تُحصى، ولم يتزوّج بعدها.

الحظّ؟ القدر؟ أم هي خياراتنا التي نمشي إليها بكامل إرادتنا؟ هل إرادتنا معدومة تجاه الزمن وحكمه علينا؟ ترعبني أنا وجيهان فكرة التنازلات، لم نفكّر يومًا بحاجتنا إلى البحث عن نصفنا الآخر، ظّل لدينا يقين بأنّنا مكتملات، يمكننا العيش بكينونانتا الناضجة ككائنات بشريّة منفصلة. لم نكن نرفض فكرة المشاركة، لكنّ المشاركة شيء والنقص شيء آخر.

تذكّرني جيهان بأنّني الأكثر تماسكًا والأكثر عقلانيّة بينهنّ، ولكنّ إحساسي بالإحباط دفعني إلى إخفاقات جمّة في حياتي الشخصيّة. كأنّني أتشبّث بالفشل بطريق معروفة نهايته مسبقًا. جيهان نفسها تعترف بأنّها ليست أفضل حالاً، فمن رجل سيّئ لرجل أسوأ، تعيد الآن التفكير في مقولتها الشهيرة «لا يُنسى الرجل إلاّ برجل آخر» وتؤكّد فشل النظريّة الذي أثبتته الممارسة. روعة أيضًا تتجاوز مشاكلها بانهماكها اليومي في متطلّبات عائلتها التي لا تنتهي. كلّما اجتمعنا، نحن الثلاثة، نتوغّل عميقًا في طفولتنا، ونادرًا ما نتكلّم عن مشاريعنا المستقبليّة وطموحاتنا التي نصبو إليها، على عكس ما كنّا نفعل أيّام مراهقتنا وشبابنا. أرجع أنا أيضًا إلى مقولتي القديمة بأنّني لست مخلوقًا ناقصًا، حين تحصي روعة أمامنا ـــ كعادتها ـــ عمليّات التجميل في بيروت وأرتعب: إلى متى سيصمد جسدي الخمسيني الذي بدأت هرموناته بالاختلال، وهبّاته الحارّة تتصاعد وتيرتها؟ هبّات باردة أخرى تعصف في الخارج تحضر معها أصوات عويل، وصفير الريح الغاضب، وصوت عزف بيانو من البيت المهجور، بيت سوق الغرب المشؤوم على كتف الوادي. لكنّ هذه المعزوفة أعرفها جيّدًا، إنّها رقص الصبا على مقام النهوند، ولا أحد يتقن لعبها إلاّ جدّتي رئيفة!

ها قد انتهت الكأس الثالثة، وأنا لا أستطيع سوى أن أفكّر بسوداويّة، مع أنّني قرّرت ألاّ أفعل ذلك من أوّل الليلة. التسويات والتنازلات والتضحيات هي كلّ ما أفكّر فيه. أن نعيش في لبنان، بلد الحروب الكبيرة والصغيرة، حروب الدول والشوارع، فإنّنا في كلّ مرّة نعاود الابتداء من نقطة الصفر، دون أدنى استفادة من فكرة التراكم. كلّ ما يتراكم هو الأحزان والتعب واللهاث وراء أوهام سعادتنا، واستقرارنا، ورصيدنا المصرفي، والحبّ والإنجاب. عفّتي خان زاده نسيت نفسها تمامًا في هذه الدوّامة، واعتادت أن تكون سعادة الآخرين مصدر فرحها.

ما لي أحنّ لها الليلة وأتوق للمساتها ولوضع رأسي في حضنها

الصغير، بينما تمشد شعري وجبيني بأصابعها بصمت. خان زاده، الوديعة والمطيعة منذ طفولتها، تعيش تمامًا كجدي، للقراءة ومساعدة العائلة. في سنوات دراستها كان همّها الأكبر التحصيل العلمي، والمثابرة في اللغة الفرنسية خاصّة، هذه اللغة التي لم يتقنها أحد في العائلة، فكافحت لتبقى الأولى على صفّها. أتقنت الخياطة لتصنع لنفسها ولنساء عائلتها حمّالات الصدر التي كانت في أوائل القرن الماضي تُخاط ولا تُشترى. عندما أنهت دراستها، واشتدّ الوضع المالي سوءًا، اضطرّت للتعليم في بلدة النبطيّة، كي تساهم في تحمّل أعباء العائلة الكبيرة والمنزل المكتظّ بالنساء، شقيقتيها وأرملة أخيها وبناته الأربع، لا يساعدها في المصروف سوى والدي، بينما عمّي الكبير يشقّ طريقه متفوّقًا في الجامعة اليسوعيّة، ويسعى للسفر ونيل الدكتوراه من فرنسا، وعمّي أبو رامي لا يزال طفلاً. تعود خان زاده من يومها الطويل لتساعد في الأعمال المنزليّة، تُخيط الملابس، تغسل، ترقع الجوارب، ترتّب الجوارير. ولولا أنّها لم تكن بارعة في أمور المطبخ لما تأخّرت عنه أيضًا. تزور أختها الكبرى، وتعاونها أيضًا. وفي أوقات فراغها النادرة إمّا أن تقرأ أو تقوم بأشغال الصنّارة اليدويّة والتطريز، لتزيّن المنزل بأشياء تشابه رقّتها. لم تنتبه يومًا للباسها أو حذائها أو حقيبة يدها، فالموضة والتغيير أشياء لا يمكن أن تخطر لها على بال. فساتينها بسيطة تزيّنها دائمًا بحزام رفيع، ولا تستغني عن أحدها إلاّ بعد أن يؤدّي خدمته العسكريّة كاملة، ويكون قد ناله الاهتراء، ليهبط من فستان خروج إلى فستان منزل ثم عمل. وأحذيتها كذلك لم تكن أسعد حظًّا، ولم يكن أمامها سوى أن تلتزم الصمت حيال مزاح بنات أخيها، وتهكّمهنّ على «شياكتها» وكأنّ الموضوع لا يعنيها. وأحيانًا تضحك معهن وتشاركهنّ السخرية من موديلاتها العتيقة، التي لن تستطيع بسببها أن تهب أيًّا منها لواحدة منهنّ. ما زلت أحتفظ بحقيبتين يدويّتين لها كانتا كلّ ما تملك، واحدة بنّيّة والأخرى بمربّعات صغيرة بيضاء وسوداء ومسكة قصيرة، يغلقها ملقط كان ذهبيًّا لكنّه أصبح صدئًا، وهي المفضّلة عندي. أذكر هذه الحقيبة جيّدًا، وأتذكّر كم منحتني من سعادة في طفولتي. كانت تحملها وتأخذني للتنزّه في «جنينة الصنايع»، تفوح منها رائحة النظافة الخالصة، لا عطور أو بخور بل رائحة الصابون البلدي المصنوع من زيت الزيتون، الذي تدعك به جسدها الصغير الهزيل، صباحًا ومساءً، وأيضًا في كلّ وضوء قبل أن تصلّي الصلوات الخمس في أوقاتها. أغطية رأسها من الموسلين الناعم، بدون

كلف أو شياكة، بسيطة بساطة مفرطة تشي بها نظّارتاها المدوّرتان بإطارهما الرقيق، وتختبئ وراءهما عينيها الغائرتين المتعبتين، المبتسمتين دومًا، لا يكاد أحد يتذكّر ملامحها حين تمرّ كنسمة صيف، برقّة تصل إلى حدّ الغياب. في نهاية مشوارها الصعب أراد أبناء وبنات أخيها جميعًا إراحتها، اعترافًا منهم بفضلها عليهم. كانت أحوالهم المادّيّة قد تغيّرت تغيّرًا جذريًا، لا سيما والدي الذي اتّفق مع إخوته على بناء بناية تجمعهم بدلاً من الدار القديمة التي ضاقت بهم. قامت البناية وخصصوا فيها للوالدة والعمّات طابقين منفصلين، ليتسنّى الاهتمام بهنّ يوميًا. توفّيت فاطمة أوّلاً، ومن بعدها صبحيّة، وبقيت خان زاده مع خادمتها السمينة المهووسة بالنظافة والطهارة. ولكن الحياة كعادتها لن تسمح لها بنهاية هادئة. لم تحملها أصابعها المتكلّسة على تخفيف أعمالها المنزليّة، بالرغم من كلّ الآلام التي تشعر بها وهي تستعمل يديها، ولم يمنعها إحساس خادمتها بالإهانة وشعورها بأنّ في هذا التدخّل قلّة اعتراف بجدارتها وحرصها على المنزل. لكنّ الوجع الحقيقي ابتدأ مع وجود درن كبير في ثدييها. لم يرض الطبيب أن يلمس امرأة تقارب الثمانين، وأوضح لنا أنّها لن تحتمل أيّ نوع من العلاجات الكيميائيّة أو الإشعاعيّة، وطمأننا إلى أنّ انتشار الخلايا السرطانيّة سيكون بطيئًا جدًّا في متن جسدها العجوز. رفضت خان زاده أيضًا أيّ نوع من العلاج، واعتبرت الأمر قضاء الله وقدره، وعليها القبول به. حين أصبح الألم فوق الاحتمال تحايلت عليها لتأخذ المسكّنات فكانت تجيبني: يا عمّتي الله يجرّب صبري ويمتحن إيماني؛ الحمد الله ربّ العالمين الذي لا يُحمد على مكروه سواه، ثم تنهي أيّ حديث أو مناقشة، معي أو مع غيري، بجملة «يا الله عفوك ورضاك»، فنصمت جميعًا. مرّت أسابيع آلامها كصبرها سنوات بطيئة، في أيّامها الأخيرة فقدت وعيها من شدّة الألم، وأصبحت تتخيّل أشياء، وتعاود العيش في ذكريات الدار القديمة، إلى أن قالت لي ذات ليلة:

ـــــ عمّتي، أرجوك خذيني إلى منزلي.

ولكنّنا يا عمّتي في منزلنا!

ـــــ لا يا عمّتي في بيتنا قضبان زنبق، جدّك في الحديقة، وعمّتك صبحيّة تنتظرني، أرجوك خذيني.

أنظري يا حبيبتي هذه غرفة نومك، هذه خزانتك الماركتريه، أنت في سريرك، وهذا سرير أختك صبحيّة.

ـــ لا، لا، أرجوك خذيني إلى بيتي أريد أن أرتاح.

حملتها بين يدي. لم يتجاوز وزنها الستة والثلاثين كيلوغرامًا. كنت في الثلاثين، ودرتُ بها في أرجاء المنزل، من الصالون إلى غرفة الطعام والمطبخ وغرفة الجلوس، فالصالون من جديد. وهكذا دواليك، مرّات عديدة، ثم نقلتها إلى غرفة نومها، فشكرتني لأنني أعدتها إلى منزلها لتنام. بكيت كثيرًا في تلك الليلة. بكيت إلى أن شعرت أنّ عيني ترفضان البكاء لأتوحد مع خان زاده ساعة خروج روحها، وأخرج معها من جسدي ومشاعري أيضًا. شعور بالانفصال الكامل ما بين الجسد والروح والمشاعر ومن حولي، وكأنني معها أنظر من علوّ إلى الجميع: نساء الأقارب؛ منهنّ المتجهمة والحزينة، ومنهنّ من تسبّح أو تقرأ القرآن. عمّاتي يندبن بصمت، أمّي وزوجات أعمامي تنهمر الدموع من عيونهنّ وهنّ يحاولن القيام بالمهام الروتينيّة للموت. وكالعادة، تمّ طلب مؤسّسة المقاصد للقيام بالأعمال المعهودة، من غسل الميت، إلى سيّارة الدفن، ومقرئو القرآن، وفتح القبر، وما إلى ذلك. من غير تفكير توجّهت مباشرة إلى غرفة نوم خان زاده، حيث تمّت إزاحة السريرين جانبًا ليحلّ جنبهما سرير الغسول الحديدي، وهو مجرّد لوح حديدي في جانبه ثقب لتصريف المياه. لأحتفظ بقربها ولألمسها ولأمشط شعرها الأبيض المجعّد، وأشمّ رائحتها للمرّة الأخيرة. حملتها بين يديّ ودلّكتها بلطف، بالصابون البلدي الذي تفضّله، نظّفت جراحها ودمامل ثديها المفتوحة حتى لا أرى نظرة استياء في وجه المغسّلتين ـــ لن يلمس خان زاده أحد غيري ـــ، وبالماء الفاتر السائل على هيكلها المهترئ نظرت إليها مودّعة، حدبة ظهرها المنحنية، أصابع رجليها المتراكبة بعضها فوق البعض الآخر، جلدها الأبيض الرقيق، أصابع يديها المتكلّسة. قبّلت جبينها الوقح البرودة والبياض، قبل أن أتركها للقطن والكفن الأبيض. ودّعتُ خان زاده بلا حزن أو فرح، وبلا إحساس في ثرى جبّانة الشهداء.

أرتشف كفّيّة كبيرة من كأس نبيذي الأحمر، وآخذ مجّة طويلة من سيجارتي ذات الرماد الطويل، لأنفث دخانًا كثيفًا، أتأمّل، في حلقاته المتطايرة، رحيل كلّ الأصدقاء والانتهازيين الذين غادروني بانتهاء مصالحهم، وكلّ الرجال الذين عبروا، بعدما انطفأت نار العلاقة، وخمدت شهواتنا ونزواتنا ومغامراتنا. حتى أجسادنا تتآمر علينا فتتكاسل أنسجتنا لتلوين شعرنا، وتسلّمنا إلى المشيب، دعوة صريحة لنستقبل لون الكفن

الأبيض. أفكّر بكلّ الشراشف وملاءات الأسرّة التي تغطّيني، والمناشف التي تدثّرني، فأقرّر ألاّ أستخدم سوى الملوّنة فقط، وسألبس اللون الأبيض عبر حياتي كلّها: ثيابي الصيفيّة ستكون كلّها بيضاء، وما استطعت في الشتاء، سأواجه الموت بلونه، بتعويذته.

هل أنت زعلانة منّي يا خان زاده؟

أعرف أنّك لن تتصوّريني أشرب زجاجة من النبيذ لأتذكّرك وأشتاق لك، وأكون كأخيك أسامة شارب الخمر، والطير المغرّد خارج سربه. ربّما ستحبّينني، طبعًا أنت تحبّينني، ولكنّني أعذّبك مثله تمامًا. دائمًا أنا الخارجة عن التقاليد والعادات والدين، وهذا ما كان دومًا يؤلمك منّي، الدين الذي حاولت أن تشدّيني إليه ولم أطعك أبدًا، لم أسمع منك يومًا. دائمًا ما أنهي حوارنا بالمراوغة، بفتح مواضيع أخرى، بقبلة قاسية على جبينك وبالهروب.

«القليل من الخمر يفرح قلب الإنسان»، فدعيني يا عمّتي أفرح قليلاً، غضّي النظر يا عمّتي لأرتاح قليلاً.

بعد أن تُوفّي والدي، انفصلتُ عن ذاتي للمرة الثانية، وبدأت أدرك المدى الذي وصل إليه انعدام مشاعري. منذ ذلك اليوم وأنا أذهب إلى العزاء كأنه زيارة عاديّة، وأنزعج من نفسي لأنني لا أشعر حتى بالحدّ الأدنى من التعاطف مع أهل الفقيد. أتحوّل إلى آلة بلا روح. ما زال والدي يركض في خيالي بقصصه التي رواها لنا. طفولته المتواضعة وكونه ابن معلّم في سوق الخضار، رزقته قليلة، وُلد وتربّى وترعرع في منطقة المصيطبة. كان يسعد في طفولته ـــ في غير عيدي الفطر والأضحى ـــ في فصل الربيع حين يلحق بـ «خروج عيتاني» السيّدة البيروتيّة التي كانت تقزر أربعاء أيّوب. فيجري وراء عربتها المؤجّرة ذات الحصانين الكبار والصغار ليصلوا إلى البحر ويأكلوا المفتّقة، هذه الأكلة التي نادرًا ما يستسيغها ـــ لثقل محتوياتها ـــ غير البيارتة الذين اعتادوا عليها. يعتقد والدي أنّ اختيار الأربعاء في فصل الربيع أتى من غيرة السنّة من فصح الروم، تلك الطائفة التي تشاركهم في بيروت بحبّ وتفاهم تاريخيين، مناسبة للاحتفال، أسوة بشمّ النسيم المصري الفرعوني الأصل، والنيروز الكردي. كان يحبّ أكلة المفتّقة، وهي نوع من الحلوى بالخبز العربي منذ طفولته، لكنّه ابتعد عنها قدر استطاعته بعدما نخر مرض السكّري شرايينه الصغيرة. جسده المهترئ من تعب السنين الطوال لم يمهله. وحين أراد الراحة، وأصبح في استطاعته أن ينالها بعد كفاح العمر، لا الروماتيزم ولا قلبه المتعب سمحا له بذلك.

حبّه لبيروت، بكلّ تفاصيلها، منعه من الابتعاد عنها. كلّ عوائده الثابتة لا يقوى على تغييرها، من أنواع الصابون والحليب والزيت، إلى المدارس والمستشفى، هو وكلّ محيطه الذي نادرًا ما يغيّر طقوسه وتقاليده. لم تشهد علاقتنا سلمًا ثابتًا أو حروبًا مستديمة، بل تأرجحت ما بين حالة الحبّ والفخر بكونه والدي، والهلع الذي ينتابني كلّما أحسست بتبعيّتي له. مجرّد ابنة وظلّ له، أشاكس لأثبت كياني المستقلّ المتميّز، فيستوعبني أحيانًا، وتكون التحدّيات أكبر من قدرته على الاحتمال أحيانًا أخرى. دائمًا ما كنّا نطرب معًا، ونغنّي القدود الحلبيّة، أو أغاني أمّ كلثوم المفضّلة لدينا. وما إن نتناقش بأيّ موضوع آخر حتى تعلو أصواتنا ونختلف. أكتشف الآن كم أشبهه في طريقة نومه، وأكلاته المفضّلة، وشراء الخضار والفواكه بكميّات كبيرة، وأشعر أنّ عليّ، بعد كلّ هذا العمر، أن أستمتع بما كنّا نتشارك فيه، وأنسى كلّ مشاعر التحدّي، ومرارة سؤالي لذاتي. ماذا لو سنحت له الظروف وتعلّم ما يليق بذكائه؟ بالرّغم من أنّ ظروفه لم تمكّنه من إحراز تحصيل علمي، استطاع بناء حياة مهنيّة

ناجحة، انتزعها انتزاعًا من براثن الفقر والحرمان والتعب. لم يخجل يومًا من سرد حكايات طفولته المثقلة بالهموم، من ذلك اليوم الذي اضطرّ فيه أن يستيقظ قبل الفجر على دعوات أمه، ليساعد والده، لأنّ صحته الجيّدة وقامته الكبيرة أهّلتاه لهذا الدور. لم يكن الأكبر، لكنّ ذلك كان قدره؛ كان يخرج كلّ يوم إلى سوق الخضار، ومن ثم إلى المدرسة حيث يغلبه النوم من الإرهاق. كان يخبرنا، بكلّ فخر، عن حبّه وهو صغير، للتسلّل إلى المطبخ كي يسرق رغيف خبز ساخنًا، ليضع عليه كفّية من السمن والسكّر ويأكله بلذّة فائقة، إلى أن اكتشفت أمه، أو إحدى عمّاته، ذلك، فادعين أنّهنّ أخطأن العدّ، أو أنّ صبي الفرن الملعون لا بدّ أوقع شيئًا منه أو أكله. غرامه الآخر كان تربية الأرانب، وكانت السبب الرئيسي لاقتنائه سريرًا حديديًا. أرانبه البيضاء الجميلة تكاثرت بشكل غريب، حتى ضاق بها القفص المعدني، وحفرت خنادق في أرض الحديقة. كان لا بدّ له من إطعامها يوميًا، فكان يحمل على ظهره شوالاً كبيرًا يلمّ فيه بواقي الخضروات، من خسّ وملفوف وجزر، وكلّ ما يمكن أن تأكله الأرانب، ويخرج به من سوق الخضار بعد الفجر في أوّل الصباح، مشيًا إلى بيته، ليطعم حيواناته المفضّلة، ثم يذهب إلى المدرسة. وكانت المشقّة شديدة في شتاء بيروت القاسي. وفي يوم شديد البرد والمطر، كان كعادته يحمل الشوال الثقيل الذي ازداد وزنه بالمياه المتساقطة، فوضعه بين كتفيه العريضتين ومشى متمهّلاً مطأطئ الرأس، وإذا به يشاهد في الوحل ظرفًا أبيض، داس عليه ومضى، لكنّ حشريّته ما لبثت أن أوقفته، واحتار بين رغبته في اكتشاف ما قد يكون في الظرف، وبين أن يُنزل الكيس الثقيل الذي يكاد يقصم ظهره، ويعيد حمله. تبع حدسه، فعاد إلى الوراء، وأنزل حمولته الثقيلة وفتح الظرف ليجد فيه كفّية كبيرة من الليرات اللبنانيّة، فوضعه في جيبه وحمل أثقاله طائرًا إلى المنزل، وهو لا يصدّق الأمر، فاشترى لنفسه أوّل سرير في حياته، ووضع عليه فرشة الصوف خاصّته التي اضطرّت العائلة فيما بعد إلى أن تبيعها، وأن تستبدل بها القطن لسوء الحالة الماديّة. لكنّ العاصفة الشتويّة القاسية لم تمنح والدي السعادة خالصة، فمع انهمار المطر الغزير لعدّة أيّام، هبطت خنادق الأرانب المحفورة في الحديقة عليها وقتلتها جميعًا. ومنذ ذلك الوقت كره أكل الأرانب ولم يعد يتجزأ على تربيتها من شدّة حزنه عليها.

لم تفارق أبي روحه الطفوليّة قطّ، حتى خوفه من الحرائق لم يؤثّر في ولعه الخاصّ بالمفرقعات. كان ينتهز فرصة الأعياد ليشتري لي ولأولاد عمّتي وأعمامي الكثير من الأسهم الطائرة، ويكون أكثرنا فرحًا بإشعالها.

ربّما هذه النفس المرحة هي التي ساعدته على اجتياز مصائب العيش في لبنان، مثل يوم السبت الأسود، حين ذُبح أعزّ أصدقائه في مرفأ بيروت، لمجرّد دلالة اسمه الطائفيّة. ظلّت مشاعر الغضب والحزن تنتاب والدي لمدّة طويلة جدًا، لكنّ كراهيته للنزاع الطائفي، واقتناعه بأنّ هناك مؤامرة على لبنان، جعلاه يتجاوز المحنة، بل أخذ يؤكّد لنا، ويفهمنا، بهدوء وإقناع، أنّ العيل المسيحيّة في الجهة الشرقيّة المقابلة، مثلنا تمامًا، مسالمة، لكنّ الرعاع، من حملة السلاح ومتعاطي المخدّرات، هم الذين يعيثون فسادًا في الشوارع ويحكمونها، ويحكموننا. كره والدي السياسة سنة ١٩٧٦، ليصبح أكثر انهماكًا في عمله. أصبحت أمّي تعرف متى سيذهب إلى مكتبه في الطريق الجديدة، ولكنّها لا تستطيع أن تخمّن أبدًا متى سيعود، وإلى أيّة ساعة سيأخذه العمل. كان أحيانًا يأتي حزينًا أكثر منه منهكًا، عيناه العسليّتان الصغيرتان تنبئاننا بأحواله، فنفهم أنّه تلقّى زيارة في مكتبه من مسلّحين فلسطينيّين تابعين لأبي فلان أو أبي علاّن، يسألونه تبزعًا، فيستجيب صامتًا، أو يطالبونه ببدل حراسة فيقبل من دون مناقشة. لم يشكّل يومًا صداقات أو معارف كي لا يُحسب، سياسيًّا، على أحد. كان يفضّل الدفع المادّي بلطفه المعتاد، واجتنابه لأيّ نوع من العداوات، غير أنّ مسلّحًا على أحد الحواجز التي كانت منتشرة منذ أواخر السبعينيات، لغاية عام ١٩٨٢، أوقفه ذات مساء وأطلّ برأسه من نافذة السيّارة، ففاحت منه رائحة السكر الشديد، وقال له، بودّ شديد، إنّ الشباب جائعون، فأخرج والدي كلّ ما في جيوبه وأعطاه له. وبينما كان يناوله المال تغزّل المسلّح بساعة والدي، فما كان منه إلاّ أن أعطاه إيّاها أيضًا، قائلاً إنّها ستكون أجمل في معصمه. ربّت المسلّح على كتفه بحبّ وبقبلة، رغم تعليقه الساخر بأنّ المال الذي بحوزة والدي يكفي لعشاء فلافل فقط. وانطلق أبي عائدًا سعيدًا إلى المنزل، وأقسم إنّه لو أراد منه السيّارة لأعطاه المفتاح والرخصة، وعاد على قدميه إلى المنزل. كان خائفًا من أن يصيبه ما أصاب آخرين، أن يُردوه بالرصاص من الخلف، بحجّة عدم الوقوف عند الحاجز، وتحاشيًا لانكشاف السرقة. كان ما زال يحمل في قلبه ذلك الأسى وذلك الرعب بعد أن اختفى أعزّ أصدقائه عند حاجز البربارة، الحاجز الشهير المرعب في منطقة الشمال. لكنّ والدي، البيروتي الصميم، كان يعرف أيضًا أنّ الحياة تستعز في بيروت، بحروبها ومناوشاتها، وهدنها الاستثنائيّة التي يلتقط اللبنانيّون أنفاسهم فيها، ويعاودون ترميم حياتهم الممزّقة. عاود أبي بعد هذه الحادثة لعب البريدج في المنزل أيّام السبت، وارتفعت أصوات الرجال وشتائمهم، مختلطةً بصراخ ألعابنا نحن الأطفال في بيت

العائلة الذي يضمنا جميعًا، وانهمكت النساء في تحضير الموائد. الأطفال يلعبون، أما الأكبر سنًا من المراهقين والشباب فانهمكوا في مشاهدة الأفلام على أوّل أجهزة الفيديو في بيروت. وما زلت أذكر كيف اجتمعنا لنحضر فيلم «الرسالة»، حتى ضاقت المقاعد والأرض بنا، وأتذكّر كمّيّة المحارم الورقيّة المستعملة لمسح الدموع المنهمرة عند اشتداد الكرب على رسول الله. كما أذكر غضبي وخروجي من الحلقة حين أصرّ الأصدقاء على حضور فيلم «زومبي» آكلة لحوم البشر. كان دائمًا المبادر لكلّ فرحة. وفي كلّ مناسبة يمكن أن تجمع أكبر قدر ممكن من عائلات الأصدقاء، فيعلن أنّ يوم الأحد القادم هو نهار ربيعي جميل، ويجب علينا استغلاله، سنذهب جميعنا لقضاء يوم في البرّيّة، والويل للمتخلّف، فتمتلئ السيارات بالكراسي ولحوم المشاوي، وعلب التبولة والحمص بالطحينة، وكلّ لوازم النزهة، من فحم ونراجيل وغالونات ماء شرب، وما إلى ذلك. كانت هذه حياته ومسرّاته، حتى قضف الطيران الصهيوني الأكثر شراسة على بيروت عام ١٩٨٢ لبنان. ضربت القنابل الفوسفوريّة مستودعات والدي وقضت على كلّ بضائعه. استمرّ الحريق عدّة أيّام دون توقّف، برغم كلّ جهود الإطفاء التي لم تستطع الحؤول دون سقوط البناية، وجزء من البناية الملاصقة لها، كأفلام الكرتون. عاد أبي إلى نقطة الصفر، مع ارتفاع هستيري للسكّري في دمه. مرّة أخرى حمل حقيبته الثقيلة على كتفيه القويتين، وابتدأ رحلته من جديد في العالم العربي بإرادة جبّارة؛ فهذا المحارب لا يثنيه شيء.

أعبّ كأس النبيذ برشفة كبيرة وطويلة، لم أعد أعدّ الكؤوس، ولا حاجة ماسّة لعدّها ما دام في الزجاجة القليل ليكفيني خلال ما تبقّى من سهرتي الهادئة. أفكّر أنّ النبيذ ربّما لعب في رأسي أكثر من المعتاد لخواء معدتي، فأنا نسيت أن آكل اليوم، وأتذكّر روتين يومي المملّ، وكمّيّة فناجين النيسكافيه والقهوة التي احتسيتها، وتفاهة اليوم العادي في العمل. لا يهمّ. هل لهذا أتذكّر الآن لحظات والدي الجميلة وهو في كامل صحّته وانطلاقه البهيج، الشغوف بالحياة؟ كم استغرقت من السنين الطويلة كي أنسى آلامه في أشهره الأخيرة؟ كم جاهدت كي أصفو بذاكرتي، وكي أتذكّره كما أتذكّره الآن، مشرقًا ومتحدّيًا ومحبًا للحياة، حبًا عارمًا؟ ستّ سنوات مرّت كي أنسى مشهده يجز رجله المريضة، ورائحة غرفة الإنعاش الكئيبة حيث استسلم للموت، بعد أن شاهد ازرقاق إصبع رجله وأدرك المصير. اختارت كرامته وعنفوانه أن يكفّ عن استعمال كراسي غرفة الطعام كي يتوكّأ عليها من سريره إلى الحمّام، خشية أن لا يوقظ أمي من النوم، ليقضي حاجته في الليل. نظر في الفراغ القادم إلى

قدمه المبتورة وقزر الرحيل شابًا جميلاً كاملاً، لقد غادرنا برضاه، مبتسمًا.

لم تزل أمّي تنتظر والدي، بالرّغم من مرور كلّ هذه السنوات على وفاته، تجلس على كرسيّها المعتاد في استقباله، في مواعيد قدومه للمنزل، تحافظ على فرشاة شعره وعطره وساعته ونظّارتيه قرب السرير. هاتفه وعصاه ما زالا في مكانهما. ربطة عنقه الأنيقة الملوّنة وما كان يفضّله من ملابس. لم تبرح كلّ تفاصيله الصغيرة أمكنتها. أمّي مقتنعة تمامًا أنّ والدي مات، تذهب إلى المقبرة «جبّانة الباشورة» لتزوره كلّ يوم جمعة، حاملةً أيّ نوع من الأزهار البيضاء، ونبتة الأيس التي تزيّن قبور المسلمين عادةً. يلحقها دومًا المشرفون على القبور بأباريق الماء، فيغسلون لها الشاهد والرخامة البيضاء، لتبقى دائمًا نظيفة خلال أيّام الأسبوع، وتمنح الجميع الهبات الكريمة. تقرأ له آيات من القرآن الكريم، خاصّة سورة ياسين، وبالطبع تبكي كثيرًا، وتخبره أخبار أولاده، وكم تحبّه وتشتاق إليه. أمّي لم تخلع الأسود منذ أن توفّي، ولا فارقها مزاجها المكدّر إلاّ نادرًا. لا تحضر أيّة مناسبة سعيدة من أفراح أو حفلات موسيقيّة، لكنّها تهرع لحضور المآتم ولا تفوّت الدفن. لم تزل لديها طاقة فائضة من البكاء تواسي بها أهل الميّت، تشاركهم حزنهم العميق، وتندب أبي وحده في سرّها، وتعود إلى المنزل منهكة، تكاد لا ترى من كثرة ما ذرفت من الدموع. تعاود جلستها في مقعدها وتتأمّل مكانه الفارغ. تحافظ على مواعيد الغداء، وتجبرنا عليها لتجتمع العائلة كلّ يوم، كما كان يحدث تمامًا حين كان موجودًا. وحين تغضب، فإنّ أوّل ما نتوقّع أن تصرخ به في وجوهنا هو تمنّيها لو أنّها ماتت بدلاً منه. أمّي المغرمة بوالدي، الوفيّة له، لم تبدأ حكايتها معه بقصّة حبّ، بل بزواج تقليدي جدًّا، لتتحوّل العلاقة إلى غرام وشراكة جهاد. هو ليس والد أطفالها فقط، بل المثل الأعلى والحبيب، والرجل الأوّل والأخير. تحافظ على صوره المنتشرة في جميع أنحاء المنزل، منذ طفولته حتى آخر أيّامه. وعندما تشتاق إليه تدخل غرفة نومهما لتشمّ فرشاة شعره، وما بقي عالقًا فيها من شعره الأشقر الناعم، ثم تعاود وضعها قرب زجاجة عطره الكارتييه الأخيرة. تكتظّ الغرفة بحضوره وبأشيائه. جانب السرير الذي كان ينام عليه فارغ، وجواريره المعبّأة رتّبت فيها بعناية فائقة جواربه، وألبسته الداخليّة البيضاء النظيفة، وأحذيته اللمّاعة. أحيانًا تقضي أمّي يومًا كاملاً تبدّل أمكنة بذلاته وقمصانه وجينزاته المفضّلة. بعد سنوات من وفاة والدي، أصبحت أمّي محطّة قطار رئيسيّة، تستقبلنا وتودّعنا، عائدين ومغادرين، تهتمّ بمواعيدنا وصيانتنا وتنتظر، لا أدري ماذا تنتظر! فضلت أحلامها على مقاساتنا جميعًا، ونسيت، أو بالأحرى، تناست نفسها.

لا بدّ من الذهاب إلى الحمّام، مجّة من السيكارة في رمقها الأخير بحيث تقترب الحرارة من شفتي لأبرّدهما برشفة طويلة من النبيذ الفاتر. أتسلّى قليلاً بالنظر إلى وجهي في مرآة الحمّام:

ترى هل هي كمّية السوائل التي أشربها مساء؟ أم هي عوارض ارتفاع مستوى السكّر في الدم؟

ـــــ لِمَ لا؟ فالسكّري مرض وراثي!

ـــــ وارد جدًا

ـــــ بل أكثر من وارد، أنت تعاملين جسدك باحتقار شديد!

ـــــ أنا...؟ على العكس أدلّل جسدي!!!

ـــــ تدلّلينه؟! كم علبة سجائر تدخّنين يوميًا؟ كم تشربين من الكحول؟ أعطيني مثلاً مواعيد نومك وعدد الساعات التي تنامينها متّصلة بغير انقطاع؟ هل تستطيعين أن تصفي لي حميتك الغذائيّة؟...

ـــــ لعلّها الوحدة.

ـــــ الوحدة؟! وماذا عن العمل والأهل والأصدقاء؟ ماذا عن روعة وجيهان؟

ـــــ لعلّه الحنين إلى الحبّ!

ـــــ الحبّ؟! هذه ألطف مزحة سمعتها منك الليلة، يبدو أنّ مزاجك آخذ في الاعتدال، أو صناعة الأسطورة، أسطورة الرجل الذي أحبّ، والتي أصدقها، وأحبّ أن أجعله يصدّقها حتى في الفراش، في ممارسة الحبّ، وصناعة الوهم، وهم المتعة.

ـــــ أنتنّ النساء هكذا تصنعن أوهامكنّ وأساطيركنّ ومن ثم...

من قريتي الموحشة في الشتاء أنظر إلى بيروت. ثمة أضواء قليلة ومتفرّقة. لا أحد يسكن هذه القرية في الشتاء إلاّ القليلين، حتى هؤلاء يلتقون في غرفة واحدة مدفأة، توفيرًا لنفقات «صوبة» المازوت أو الحطب. شجر الصنوبر هو الوحيد الذي يتمنّع ببردها القارس، وأمطارها التي تهطل أفقيًا من سرعة الرياح. لا بدّ من صوت الريح ليكتمل مشهد الشوارع شبه المهجورة، والكنيسة المنسيّة ودير راهبات «زهرة الإحسان». تتآمر القرية على الصمت، حتى قطعان الكلاب الضالّة والضفادع تحترم عويل الريح وهي تجوب أطلال البيوت التي دمّرتها الحروب التي شهدتها سوق الغرب، على مدى أعوام طويلة. كلّ ما أراه من الجهة الأخرى لمنظر بيروت والبحر طريق ضيّقة صغيرة، تصعد بقسوة إلى رأس الجبل، تظلّلها أشجار السرو والصنوبر العجوز. لا أعرف إلى أين تؤدّي، ولا أريد أن أعرف. أسميتها طريق الأسرار، واكتفيت بالنظر إليها من مطبخي، فاكتسبت، يومًا بعد يوم، قدسيّة كما لو أنّني أطلّ كلّ يوم على الأزل، على مركب فرعوني يبحر في النيل صوب الخلود. يهبني ممرّ الأسرار الشمس كلّ صباح، ودموعه الغزيرة عند هطول المطر، يودعها أمانة تحت بيتي كأنّه يستجديني أن يظلّ أسطورة.

أحمل كأسي وأعود لأجد كلبي الحبيب ينتظرني، وينظر إليّ بعينين ناعستين كسولتين. أصبح ينام لساعات طويلة مع تقدّمه بالعمر، كان أكثر مرحًا وأشدّ نباحًا، أمّا الآن فهو ينتقل فقط من مقاعد الجلوس إلى السرير، ويتمدّد صامتًا غير عابئ بالزوّار الذين لا يعرفهم. ينظر لهم بغير اكتراث، ويعاود قيلولاته الطويلة.

لا أعرف من بيوت سوق الغرب إلاّ واحدًا، أجملها. يُشيع الناس أنّهم يسمعون أصوات عزف البيانو تتصاعد منه أحيانًا، فيهرب المارّة من «القرائن» التي تسكنه. منزل حجري بقرميد أحمر وحديقة غنّاء، كانت تسكنه عائلة عندها فتاة رائعة الجمال. أغرمت الفتاة في سنوات مراهقتها بأستاذها الإنكليزي الأعمى الذي يعطيها دروسًا يوميّة في البيانو. اكتشف أهلها الأمر فكانت الكارثة، وعلى طريقة شكسبير، قتل الأستاذ تلميذته وحبيبته، وانتحر فوقها، ليلفّ العائلة الحزن وتلاحقها لعنة الموت تباعًا في ظروف غامضة. أخترع لبيوت سوق الغرب المهجورة الأخرى قصصًا، وخاصّة إذا لم يتبقّ منها سوى الأطلال. بيوت سوق الغرب تُرمّم ببطء ويتمّ تعميرها بالتدريج، وهذا ما يريحني كثيرًا، عكس بيروت مدينتي التي ترتفع فيها المباني كالفطر في ليلة استوائيّة ممطرة، والكثير من العواصم أصبحت تفقد هويّتها بسرعة مجنونة. لم أعد أميّز معالم شارع

الحمرا، هذا الشارع الذي أصبح يشابه أيّ شارع آخر، حين انقرضت مقاهيه الحميمة الرخيصة وسيطرت عليه السلاسل التجاريّة العالميّة والمقاهي الاستعراضيّة. ما صمد في كلّ الحروب التي مرّت على الوطن التهمه وحش العولمة في وقت قياسي، حتى منطقة المصيطبة الشعبيّة اكتظّت بالأبنية الضخمة والسكّان، كعلب السردين.

رحل جارنا أيضًا، كشّاش الحمام العجوز، مع شجرتي الإكي دنيا والياسمين اللتين كان يعتني بهما، ليسارع الورثة إلى بيع العقار. ورحلت حماماته الحبيبة إلى المجهول، حماماته البيضاء كانت أعزّ عليه في أيّامه الأخيرة من أولاده. كان يسقيها ويميّزها واحدة واحدة. اشتدّ تعلّقه بها بعد بلوغه سنّ التقاعد، خرس هاتفه الذي كان لا يكفّ عن الرنين، بعد حفلة الوداع وكلمات الشكر، ثم انشغل بمرض زوجته التي لم يمهلها السرطان طويلاً. كان الأمر بالنسبة إليه مجرّد هواية في البداية، لكنّه ملأ به بعد ذلك ساعات النهار الطويلة المملّة. لم يساعده شكله على أن يكون جذّابًا للجنس اللطيف، بقامته القصيرة وكرشه الممتلئة المتهدّلة، واكتناز وركيه الشبيهين بأوراك النساء. زادته الكهولة قبحًا لتصبح عيناه أكثر جحوظًا، ورقبته أكثر قصرًا، والتصق بها خدّاه المترهّلان، وذقونه المتراكبة. كما ابيضّ ما تبقّى من شعر صلعته اللامعة. تقلّصت زيارات أولاده وعوائلهم، بعد انشغال كلٍّ منهم بأمور حياته الروتينيّة، والجري وراء لقمة عيشه. كذلك الأحفاد انشغلوا بمدارسهم وجامعاتهم وأصدقائهم. لم يكن هو أيضًا من النوع الودود، لم يكن ذلك الجدّ المتلهّف لحضن أحفاده ومعرفة أخبارهم ورشوتهم على عادة الأجداد، لجذب اهتمامهم ومرافقتهم، بل كان شديد التأفّف ممّا تخلّفه زياراتهم من فوضى وتنظيف للمنزل. كان متعلّقًا فقط بطيوره، وازداد هذا التعلّق مع تقدّمه بالعمر، ليصعد كلّ يوم إلى سطح داره، فيطعمها ويتفقّد مخلّفاتها ويكلّمها ويناديها بأسمائها. ثم يجلس على كرسيه في ظلّ ركن أسسه بعناية ما بين الأقفاص، يقيه أشعّة الشمس صيفًا والمطر والصقيع شتاء. كان غالبًا ما يتحدّث مع حماماته. لم نكن نسمع صوته إلاّ نادرًا حين يأتيه أحدهم لسؤاله ما إذا كان العقار معروضًا للبيع، فيعلو صوته مؤنّبًا له، ونسمع الجملة المعتادة: «هل شاهدت يافطة على المنزل تدلّ على أنّه للبيع؟! هذا منزلي وأنا ما زلت حيًا أرزق. هل تقبل أن يطرق الباب عليك أحد ليسألك هذا السؤال الوقح؟». وجاء اليوم... كان صاعدًا إلى طيوره متّكئًا على عصاه، فلم تسعفه قدماه للوصول إلى السطح فجلس على الدرجات الأخيرة وأغمض عينيه، بعد اكتشاف الجثّة وانشغال أولاده بإتمام طقوس الدفن والعزاء تضوّرت

الطيور جوعًا، ورفض الجميع تحفل عبء الاهتمام بها، فأطلقوا سراح حبيباته الطائرات.

ربما أصبحت أكثر دبلوماسية أو أكثر كذبًا، أكثر تقبلاً لأكاذيب الآخرين، أو أكثر فهمًا لما يُسمى الضعف الإنساني، أكثر قبولاً للازدواجيات وصناعتها مع نفسي أيضًا. لم أعد طفلة. ولن أستطيع أن أظل أوهم نفسي بأنني بديل الطفلة التي طالما حلمت بها. أليس من الممكن أن تكون الحياة أسهل؟

أتذكر ألسنة النار المتصاعدة من فندق الهوليداي إن والفينيسيا، بينما يتشاجر لصّان في محطة الوقود المجاورة على غنائم سرقة بيت من بيوت أثرياء الحي؛ فما كان منهما إلاّ أن مزّقا سجّادة أثرية ليقتسماها، بينما يتمّ سحل رجل مربوط إلى سيارة في أزقة بيروت، ولا أحد يعرف ما تهمته ومن يحاكمه. ينزّ الرصاص وسط صرخات الأطفال، ولا نعرف هل هي قذائف من المنطقة الأخرى؟ أم أبو فلان يحاول السيطرة على الشارع لانتزاع الخوّات المفروضة من أبي علاّن؟ في العام ١٩٨٢، عام الاجتياح الإسرائيلي وسقوط بيروت في يد الجيش الصهيوني، كنت أرى الجنود الإسرائيليين وجهًا لوجه، لأوّل مرّة وهم يطأون أرض عاصمتي بيروت وينتهكونها. عرفت يومها معنى الكره المطلق، جنّ جارنا ابن عليوان عندما رآهم بكامل عتادهم، يمشون كطوابير النمل لتمشيط مناطقنا من «المخرّبين»، فنزل إلى الشارع برشّاشه الكلاشينكوف الفردي، وأردى ما استطاع منهم، لكنّهم أردوه بمئات الرصاصات التي اخترقت جسده. أصبح الألم معتادًا. هرعنا إلى الملاجئ كفئران مذعورة، واحتملنا رؤية النساء وهنّ ينهرن، ورائحة بول الأطفال الخائفين من أصوات المدافع وتكسّر الزجاج، وأزيز رصاص يرنّ في كلّ صوب ، ما بين صراخ الأطفال والمصابين والجرحى، واختلاط الأمور، أيّ نوع من الحروب هذه التي نشهدها؟ دفاع عن القضيّة أو الدين: إلغاء، تحرير، إسرائيلي...

منظر غروب الشمس في بحر بيروت حزين في كلّ الفصول، في طفولتي، كانت أجمل نزهاتي مشوار الروشة والتمشي، وصوت البحر، صوت ارتطام موجاته على الصخور. كنت أخاف صخرة الروشة التي ينتحر من فوقها العشّاق، كان يرعبني قتل النفس بدون حقّ، كبيرة الكبائر، كما قال لي الشيخ في المدرسة. فالروح، كما أكّد لنا الشيخ، ليست ملكًا لنا بل لربّ العالمين، والله شديد العقاب لمن يخالف تعاليمه، وهذا كان يرعبني كثيرًا، كنّا نتمشّى هبوطًا صوب ملعب كرة القدم الخاص بنادي النجمة ومقهى شاتيلا، مرورًا بفنادق حديثة، ضخمة وفخمة كالريفيرا والكارلتون، لنصل إلى آخر الخط البحري عند جامع المريسة، حيث يلحقنا أبي بسيّارته السيمكا الفضّية ليعيدنا إلى المنزل. كان لديّ إيمان مطلق بأنّ الله يخلق

كلّ يوم كرةً من النار، الشمس، ويلقي بها إلينا لتنيرنا وتدفّئنا، ثم تسقط هذه الشمس في البحر، وتذوب تمامًا كحبّة ڤيتامين سي الفوّارة التي يتناولها أبي. لم أصدّق في درس الجغرافيا أنّها الشمس نفسها التي تشرق وتغرب. كيف؟ وأنا أشاهدها تهوي في البحر كلّ يوم؟ وكيف تسقط النار في الماء ولا تنطفئ؟ لم تكن الغيوم بالنسبة لي أبخرة وفيزياء وحرارة، بل مجزد حلوى غزل بنات صنعها الله. وكم تمنّيت بحرارة لو استطعت أن أذوقها. حين ركبت الطائرة لأوّل مرّة لم أبرح النافذة لحظة، وتمنّيت طوال الرحلة لو أقفز على الغيوم أتمرّغ بها وآكلها، وأصنع بها كرات أرشق بها روعة وجيهان. ما إن يخرج الشيخ بعد أن يكون قد فسّر لنا أنّ الله قد بسط الأرض بسطًا، حتى تأتي معلّمة الجغرافيا لتشرح لنا كرويّة الأرض ودورانها حول نفسها كلّ ٢٤ ساعة، فيدور رأسي الصغير.

في طفولتي، كانت خان زاده تأخذني مع روعة وجيهان إلى حديقة الصنائع، فتستأجر لنا درّاجات هوائيّة بثلاث عجلات، «كنّا نعشقها نحن الثلاث». ومن حقيبتها الكارو البيضاء والسوداء كانت «تحلّي لنا سنونتنا» أي أسناننا بـ «الصبابيط»، وهي حلوى على شكل حذاء، وبعده «بملبّس على قضامة وبنبون معلّل وعلكة مسكة». تشتري لنا أحيانًا نغومة، وهي غبرة القضامة مع السكّر الناعم، وتوصينا بالتمهّل في أكلها، خوفًا علينا من الاختناق. عندما كبرنا أكثر، كانت تتستّر على ما نقترف من «شناعات» حسب قولها، وتسامحنا وتنسى. كنّا نرجوها أن توقّع لنا على دفتر الامتحان الذي حصلنا فيه على علامات متدنّية فتفعل، بعد أن نعدها بالمثابرة. في الأعياد، وخاصّة عيدي الأضحى والفطر، لم تكن العائلة لتبخل علينا بالعيديّة، وكان منزل العمّات، أي منزل خان زاده، هو الملاذ لتبديد المال على ما حلمنا به. كلّما مرّ بائع متجوّل، نقرّر تجربة مأكولاته، نبدأ العيد بالتجارب ـــ مع تحفّظ روعة ـــ ولكنّنا نجزها معنا إلى بائع «الكلاوي يا فول» بحباته الكبيرة، وقطع الحامض السميكة مع اللبّ، ثم يمرّ قرب المنزل بائع الكبيس الأحمر، خاصّة اللفت، فنشتهيه ونأكله بتلذّذ، رغم تنبيهات الأهل إلى وساخة الكبيس وتلوّث المياه المستعملة فيه، ولكن عبثًا. ثم يأتي بائع الكرابيج، وهو يحمل سطلاً أحمر فيه الناطف «فننفّعه» أيضًا. وبائع التفّاح المعلّل يجذبنا بلون الصباغ الأرجواني، رغم الذباب الذي يكشّه، والفريسكو، أي الثلج المبشور، فنشتري من البائع ويغشّنا بوضع القليل جدًا من الليموناضة أو أيّ صباغ آخر من دون طعم. ما إن يأتي موعد الغداء حتى تبدأ الأعراض تظهر على الفارسات الثلاث من آلام وعوارض تسمّم، فتبدأ خان زاده بمداواتنا والتستّر على فعلتنا. كانت تغصّ

النظر عنّا وهي ترانا نازلات وصاعدات للشراء.

ما زلت أهرب إلى ما بعد الخمسين، إمّا إلى سوق الغرب أو بحقيبة سفر، أهرب من تكبيرات عيد الفطر ومن عيد الأضحى، من كلّ أنهار الدماء السائلة، ومن كلّ هذه الكرنفالات الدمويّة.

ما بين الحروب والهدن تستمرّ الحياة. شهدت الملاجئ الكثير من قصص الحبّ، وأشعلت خطوط الهواتف المعطّلة حرائق في قلوب العشّاق، لكنّ الأمور أصبحت أكثر سهولة الآن ما بين الهواتف الخليويّة والأنترنت والسكايب.

يبدو أنّني قد بدأت أسكر، وأضحك من كمّيّة الأجهزة المحيطة بي، والتي تحاصرني: جهاز الريموت للتلفزيون، والدي ڤي دي، والدشّ، والتبريد، وهاتفي المحمول، وهاتفي اللاسلكي، وهاتفي الأرضي وحاسوبي المحمول...

أنا لا أحبّ التكنولوجيا!

رأسي يثقلُ وقدماي تثقلان، لا تحملانني إلاّ إلى العمل كلّ يوم. لا أجنحة لهما أطير بها إلى موعد غرامي، أو أهرع لإحضار طفل من عند جدّته، سحابة نوم تمرّ بلطف، فأبتسم. يضغط الدخان على صدري؛ هي العلبة الثانية أو الثالثة اليوم وتوشك على الانتهاء. لن أفتح علبة أخرى أبدًا. لن تسعفني رجلاي على النهوض الآن. مشوار شاقّ، عليّ أن أقطعه لتأدية الطقوس المعتادة قبل النوم: أفرشي أسناني وأربط شعري، إذا وجدت الملقط، وأضع كريمات الوجه المحاربة للتجاعيد. التي بدأت تهاجمني بشراسة، ورمي زجاجة النبيذ الفارغة، لأنّي أكره أن أراها في الصباح. أوشكت الكأس هي الأخرى أن تفرغ. ماذا بعد؟ لن أفتح زجاجة أخرى أبدًا، ربّما نصف زجاجة من تلك الزجاجات التي اشتريتها مؤخّرًا كي لا أفتح زجاجة كبيرة. زجاجة نبيذ واحدة تكفي. أضحك، فعندما كنت في العشرين ظننت أنّ حياة واحدة لا تكفي، أنّ رجلاً واحدًا لا يكفي، طفلاً واحدًا لا يكفي، علبة دخان واحدة لا تكفي، أو رغازمًا واحدًا عظيمًا في الليلة لا يكفي، يوم إجازة واحدًا في الأسبوع لا يكفي...

أجرع بقيّة الكأس الأخيرة دفعة واحدة، وأقرّر فتح نصف زجاجة. أنا أريد سريرًا من الفراشات لي وحدي يظلّلني من الشمس، وألقي في وجهه نظّاراتي الشمسيّة. أريد أن أمسك يديه ونحلّق بعيدًا، نطير قليلاً ثم نسلم جسدينا لرمل شاطئ مهجور، مع النورس والسلاحف البحريّة المختبئة مثلنا. كم أحبّ السلاحف والقطط الكسولة! نهرب من كلّ البشر. أريده أن يمسك أقلامه الملوّنة ويرسم، لكنّني سأوبّخه إن شخبط على الحائط بقبلة طويلة. سأشتري له درّاجة يطارد بها الريح والعصافير الصغيرة، لكنّني سأسنده كي لا يقع ويجرح ركبتيه الصغيرتين، وسأعاقبه بأن أنام طوال الليل تحت قدميه إن غافلني وقاد درّاجته وحيدًا ليسرق قطعة من القمر. سأكافئه بالكثير من ألواح الشوكولا المفضّلة لديه إن قرأ لي شعرًا، لكنّني سأضربه بأوراق الورد الحمراء إن لم يكتب لي أجمل القصائد. سأسمح له بالخروج ليلاً ليصطاد النجوم ويخبّئها بعيدًا، ولكن إن عثرت على مخبئه الصغير سأحاسبه حسابًا عسيرًا؛ سأوقفه وحيدًا في الزاوية وأمطره بالقبل، سأشعل الشموع والبخور للعشاء، وإن غافلني ولعب بالنار سأدع يديه يتيمتين طوال الليل، ولن أروي له قصّة الشاطر حسن التي يحبّها. سنذهب إلى مدينة الملاهي، وسيركب القطار والحصان وكلّ سياراته المفضّلة، لكنّه سيعدني قبلها أن لا يتشاقى مع بقيّة الأولاد ويشدّ ضفائر البنات الصغيرات. سأشتري له حلوى غزل البنات والكثير الكثير من ألعابه المفضّلة: جنود صغار ومزرعة للحيوانات، لكنّني لن أسمح له أن يكسر

سيارات الماتش بوكس وإعادة ترتيبها في الصناديق. سأدعه يشاهد الرسوم المتحركة لمدة نصف ساعة فقط، كي لا تتأذى عيناه. ونضحك من توم أند جيري معًا، وسيسألني كيف لا يفنى الفأر بالرغم من كل ميتاته التذكارية؟ سأدرسه كتاب جغرافية الملذات، وستصنع أصابع يدينا أشكالاً من الظلال: حمامة وبطة، وذئبًا شريرًا سيفترسه إن لم يحبني كثيرًا، ويدلّعني كثيرًا، سأرسم على أصابع قدمينا الكبيرة المتشابهة وجهًا ضاحكًا، ووجهًا حزينًا، ووجهًا متعجّبًا، ووجه فتاة تتحرش بالوجه الحزين لتقبله رغمًا عنه. وفي المساء، وهو يلوّن جناحي الفراشة التي رسمتها له بمهارة وبكلّ أقلامه الملوّنة، سنعاود الرحيل إلى مدينة منسية، سنتعارف من جديد، بحكم جلستنا المتجاورة بالطائرة، وسيسألني عن الكتاب الذي أقرأه، أو نوع العطر الذي يفوح مني؛ أو سنتعارف في مطعم الفندق حيث سأستفسر منه عن فارق التوقيت، أو أيام العطل المتعارف عليها في هذا البلد. سنخترع أسماءنا ومهنتنا من جديد، ربما أكون راقصة فلمنكو ويكون رسامًا تشكيليًا، وربما سأكون بائعة أزهار، وهو أمين مكتبة، سأعدّ له المفاجآت السعيدة، وسنعدّ أمواج البحر ونلمّ كلّ الأماني التائهة في كيس ورقي، ثم ننثرها على وقتنا المسروق، وسأرحل عن الماضي: عن مدني المعروفة، عن الخطوات المحسوبة، عن أنفاسي المبتورة وحزني المسروقة كلّ يوم، عن كلّ البغاوات والمستنسخين والمشوّهين، سأحبه كلّ يوم، كلّ صباح، كلّ ليل، حتى تسقط منهكين كأوراق الخريف.

ها هي أمّي تجلس في مكانها المعتاد من الكنبة الكبيرة مع نارجيلتها، تضع ركوة القهوة على كانون الفحم النحاسي الكبير لتغلي بهدوء. تغمر رائحة الهال الشهية غرفة الجلوس. إنّها الساعة الثامنة مساء، يطرق والدي الباب، يخلع معطفه الخمري المبتلّ بحبيبات المطر، ويغتسل بعد الرياضة. تهرع أمّي إلى المطبخ لتحضير العشاء، تسخّن الشوربا أوّلاً. يجلس والدي إلى جانب أختي الوسطى، تقابله والدتي إلى جانب أختي الصغرى. أخي الصغير على رأس الطاولة وأنا على الرأس المقابل. «اطفي يا أمّ لطفي» كلّ ليلة يطلب منها والدي أن تطفئ نور غرفة النوم معابثًا. ها هي أمّي الآن في غرفة نومها وحيدة تقول لنفسها «اطفي يا أمّ لطفي» ثم تطفئ نور الغرفة وتنام.

لماذا كلّ هذا البكاء والنحيب يا جيهان؟ لماذا كلّ هذا البكاء والنحيب يا روعة؟

في كل مرّة تتذكّرينه وتشتدّ عليك الذكريات والوحدة تنوحين يا جيهان؟ كم مرّة عدت باكية وحيدة وأنا أنتظرك، ثم تحلفين لي بالعظيم

أنّه لم يعد يعني لك شيئًا، أو أنّها المرّة الأخيرة؟... وأنت يا روعة، من قال لك إنّ سرطان الثدي لا يمكن شفاؤه؟ هل ستظلّين هكذا تبكين رحيلك؟ تتمزّقين خوفًا ممّا سيلاقيه الأبناء حتى قبل أن ترحلي؟

هذه هي السيجارة الأخيرة والرشفة الباقية من الزجاجة الصغيرة. خان زاده تضع رأسي في حضنها، تمشط شعري المجعّد، وتقول لي: هل تعرفين يا عمّتي أنّ شعرك مثل شعر أختي إحسان؟ تدعو لي: يا ربّ اجعل حظّها أفضل من إحسان وأسامة، يا ربّ...

أنتفض، أحمل الزجاجة الفارغة، وأرميها في كيس النفايات الأسود. أدخل الحمّام وأفرشي أسناني. أنظر في المرآة، لم تزل أسناني بيضاء وجميلة. لا بدّ أن أضغط على نفسي وأنظّفها عدّة مرّات في اليوم لتبقى ناصعة. لم أزل جميلة، هذا ما يقوله الجميع، أظنّ أنّ لا بأس بوجهي، قياسًا إلى عمري، أغسل وجهي بالصابون جيّدًا حتى يمتصّ الكريمات بعمق.

أوّل موعد عندي غدًا في العاشرة صباحًا، وتنتظرني كمّية لا بأس بها من الأوراق والاتّصالات والتقارير التي يجب أن أطّلع عليها. لا بدّ غدًا من تقييم عمل قسم التسويق والمبيع ضمن الاجتماع الأسبوعي، وتحضير عدد من الكشوفات الماليّة لمطالبة زبائن لم يدفعوا...

سأتناول الغداء مع أمّي وإخوتي في الموعد العسكري. حدث تغيّر طفيف في الأمكنة، سيجلس أخي مكان أبي، ونحن في أمكنتنا المعتادة، ستجلس بنات أختي في الأمكنة الأخرى، أتطلّع إلى أخي الذي لم يزل غضًّا وأفكّر متى سألقاه جالسًا على كرسيّ في المكتب.

سأخرج بعدها أنا وجيهان، بالطبع سنحاول إقناع روعة بأن تأتي معنا، لكنّها سترفض كعادتها. سنتكلّم قليلاً أنا وجيهان لأنّني أحترق شوقًا لمعرفة تفاصيل علاقتها الأخيرة بذلك الأشيب الوسيم، وأريد أن أطمئنّ عليها وعلى أنّها خرجت ـــــ كما تقول ـــــ من القوقعة. يبدو أنّ جيهان لن تتغيّر.

ـــــ وماذا عنك هل ستتركين الباب مواربًا؟

ـــــ تعرفين أنّني لا أغلق الأبواب، سأفتح النوافذ على الأفق، هكذا قالت مريم.

لم يزل عبق روائح البخور في غرفة نومي، وما بين شراشفي. يحاول كلبي الهرم أن يقفز إلى السرير فيفشل، ما عادت قوائمه العجوزة تعينه، فليذهب إلى المقعد الذي نتنافس عليه طوال السهرة، فأنا لا رغبة لي إلاّ في النوم.